نكي مارانغو

من فاماغوستا إلى ثيينا

@ketab_n
28.5.2015

نكي مارانغو

من فاماغوستا إلى ڤيينا

ترجمها من الإنكليزية إلى العربية هيا الشوا

منشورات الرمال

@ketab_n

Twitter: @ketab_n

ترجمة: هيا الشوا
الطبعة الأولى ٢٠١٠
ISBN 978-9963-610-36-5

Authorised Translation from
English Language Edition
From Famagusta To Vienna
Published by Kochlias - Nicosia
حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لدار منشورات الرمال
نيقوسيا قبرص
www.rimalbooks.com
تصميم وطباعة: كاليغراف
بيروت لبنان
www.calligraphpress.com

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من فاماغوستا إلى ڤيينا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فاماغوستا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«استأصل طبيبٌ من ڤيينا ضلعاً من أضلاع الملك كونستانتين، ملك اليونان».

كان يورغو فتى لا يتعدى العاشرة من عمره عندما سمع فينيزيلوس يقرأ ذلك الخبر في جريدة «صوت قبرص»، الجريدة الوحيدة فى الجزيرة التي كانت تطبع كل يوم سبت وتصل متأخرة إلى فاماغوستا بواسطة القطار...

اعتاد فينيزيلوس أن يقرأ الجريدة بصوت جهوري موضحاً أياها بتعليقات ورسومات تفسيرية، ومن آن لآخر تجده يطوي الجريدة نفسها ويضرب بها ذبابة أو اثنتين متفاخراً بأنه لا يخفق أبداً بالتصويب. لُقب فينيزيلوس، كاتب العدل ذو اللحية المدببة بهذا الإسم لشبهه الكبير بالسياسي اليوناني المعروف.

في صباح اليوم التالي حاول يورغو الصغير أن يستأصل ضلع إحدى الدجاجات في فناء منزله ولكن لسوء حظه أثارت قوقأة الطير اليائسة انتباه أمه كرستاليني التي صعقت من جرأة إبنها فعلا صياحها لدرجة أن كل أهل الحي سمعوا توبيخها له. عوقب يورغو أشدّ العقاب في تلك الليلة وحُرم من العشاء، دجاج مشوي وحساء الدجاج. ولم يدرك أحد أن هذه هي اللحظة التي قرر فيها يورغو أن يصبح طبيباً وأن يتعلم الطبْ في ڤيينا.

Twitter: @ketab_n

كان لدى والده نيكوليس مؤسسة تجارية ناجحة للاخشاب وسعى جاهدا ليهيئ إبنيه ليحذوَا حذوه ويتسلما المؤسسة من بعده، لكن يورغو لم يرغب أبداً بأن يصبح تاجر أخشاب. كان تلميذاً ذكياً ومجتهداً في الدراسة لكنه متمرد. أحب مادة التاريخ واستمتع بها وأبغض مادتي الرياضيات والكيمياء كل البغض.

وصلت أخبار الحرب العالمية الأولى إلى فاماغوستا كالضوضاء البعيدة وبعد إعلان الحرب بفترةٍ وجيزة استدعى الحاكم أهل فاماغوستا إلى منزله، وقف على شرفته مرتدياً قبعة مزينة بالريش الأبيض وألقى خطاباً تلاه عزف النشيد الوطني البريطاني. فرح التلاميذ بذلك الإستدعاء لمجرد أنه أنقذهم من الذهاب إلى المدرسة وعند عودتهم إلى المدرسة؛ أخبرهم المعلم أنه باعلان الحرب، تمّ الغاء الإتفاقية بين بريطانيا وتركيا الخاصة بقبرص، وبالتالي ستصبح الجزيرة عبارة عن مستعمرة بريطانية ويصبح جميع التلامذة رعايا بريطانيين. أبدى المدرس حماساً شديداً لتحرير قبرص من الدولة العثمانية وتمنى لو أن بريطانيا تسلّم قبرص إلى اليونان كما فعلت بالجزر الأيونية. انتهى الإحتفال بالنشيد الوطني البريطاني «عاشت الملكة». لم يستوعب التلاميذ معنى «رعايا بريطانيين» و قرر يورغو استخدامها كحجة ممتعة للشجار في ملعب المدرسة، لكن للأسف خاب ظنه فلم يجد أية ردة فعل من باقي الأولاد وهو يردد مهدداً: «إسمع! أنني من رعايا بريطانيا».

في قمة الإنفعال الذي عم الجزيرة انضم عددٌ من القبارصة للقوات الحربية البريطانية المبعوثة للشرق الأوسط، بمن فيهم إبن عم يورغو، وتأثر يورغو بشجاعة إبن عمه لدرجة أنه فكر في

Twitter: @ketab_n

الإنضمام أيضاً. بدأت السفن الحربية البريطانية ترسو على مرافئ قبرص، وفجأة اختلفت أجواء المدينة وافتتحت أول حانة وروى الأب للعائلة في المساء كيف كانوا يجدون جنوداً سكارى في الحقول المجاورة لفناء الأخشاب. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصل أول فوج من الأسرى الأتراك من فلسطين مما ولدّ الحاجة إلى إنشاء معسكرٍ لهم وهنا داهم الحظ المعلم نيكوليس الذي كان قد أنهى أكبر صفقة تجارية في حياته بشراء كمية ضخمة من الأخشاب من رومانيا حين مُنح عطاء بناء المعسكر. كان المعلم نيكوليس مهندساً معمارياً بالفطرة إذ أنه كلما أراد أحدٌ أن يبني بيتاً استدعاه، فيأتي المعلم ومعه ورقة كبيرة ليرسم عليها خريطة البيت التي في الغالب ما تكون نفس البيت المستطيل المواجه للجهة الجنوبية. وعلى نفس الورقة، يدون كل ما يلزم البيت من مواد بناء، إن كان خشباً جديداً، طابوقاً أو قرميد. هكذا تكون بحوزة العميل خريطة بيته وتكاليفه في وثيقة واحدة.

في عام ١٩١٨ وصل أول الأجانب إلى فاماغوستا، فأتى المئات من الروسيين الهاربين من حرب أكتوبر. ومع أن معظمهم كان من المثقفين إلا أن الظروف أجبرتهم على بيع كل ممتلكاتهم من حلي ومجوهرات بأبخس الأسعار ليوفروا قوتهم وقوت عائلاتهم.

وقف يورغو على الشرفة بعد ظهر كل يوم ليراقب اللواء الروسي يمرّ بزيّه الرسمي وبرفقته إبنتيه الجميلتين متجهين إلى مطعم «أكروبوليس» حيث تعملان في خدمة الزبائن. احتشد أهل المدينة في ذاك المطعم كل ليلة فقط للتمتع بخدمة هاتين الروسيتين الجميلتين. أحدث وجود الروس الكثير من التغيرات في طريقة حياة

Twitter: @ketab_n

مجتمع فاماغوستا، فأدخلوا فكرة السباحة وحمامات الشمس على الشواطئ واستلقوا على الرمال مرتدين ملابس السباحة فدأب رجال البلدة يراقبونهم من وراء قصب الخيزران. شيئاً فشيئاً بدأ بعض أهالي فاماغوستا أنفسهم بالظهور على الشواطئ وبنوا أول الأكواخ البحرية. سادت شائعات كثيرة عن الفتيات الروسيات اللواتي اعتدن على نمط حياة أكثر تحرراً. فمثلاً خال يورغو، لويس لويزو، كان على علاقة عاطفية مع راقصة باليه روسية تدعى بونوتتشينفا ودعا عائلة نيكوليس بأكملها لمشاهدة عرضها الراقص في سينما «أريون». بعد العرض أعلنت أخت يورغو الصغرى بأنها ستصبح راقصة باليه وبدأت تقضي الساعات الطويلة ترقص أمام المرآة الكبيرة الموجودة في ردهة المنزل.

في سبتمبر ١٩١٩ ولعدم توفر مدرسة ثانوية للبنين في فاماغوستا، استقل المعلم نيكوليس وإبنه يورغو القطار متجهين إلى العاصمة نيقوسيا وسط دوامة من باعة يروّجون سلعهم واحتجاج الدجاج ونداءات بائعي القهوة. ووجد يورغو العاصمة مخيبة للأمل، شوارعها ضيقة، دكاكينها صغيرة، طرقها وعرة وكأن نيقوسيا في الواقع لم تكن أكثر من مجرد قرية تركية. سجَله والده كتلميذ داخلي في بيت السيدة كاتينا سامولادا الواقع بالقرب من النادي التجاري. كانت أول مهمة حرص عليها المعلم نيكوليس هي أن يقبّل يد رئيس الأساقفة ويتقبل بركاته للتلميذ الصغير. زاراه فقدم لهما القهوة والفواكه السكرية التقليدية ولكن للأسف ذهبت بركاته هدراً فلم ينجح يورغو في إمتحان الرياضيات ورفض المدير قبوله في المدرسة. فلم يستسلم المعلم نيكوليس و لم يفقد الأمل بسهولة بل عاد فوراً إلى فاماغوستا، واستدعى كل أساتذة يورغو وجاء بهم بالقطار

Twitter: @ketab_n

إلى نيقوسيا ليساندوا ويدافعوا عن إبنه النابغة. في النهاية وافق مدير المدرسة على قبوله بشرط أن يحسَن أداءه في مادة الرياضيات خلال الثلاثة أشهر القادمة وإلا سيفصل.

قضى يورغو سنتين في هذه المدرسة لكنه أكمل دراسته الثانوية وأتمَّها في مدرسة فاماغوستا الثانوية التي افتتحت حديثاً في مدينته. هناك وعندما يكون الطقس جميلاً يأخذ التلاميذ الستة كراريسهم وكراسيهم إلى البساتين والحقول أو إلى الشاطئ ليلقى الأستاذ الدروس عليهم.

لم يصب تلك الحياة الهادئة أي اضطراب إلا عند وصول أخبار من اليونان، قسمت أهل البلدة إلى فريقين. الملكيين المؤيدين للحكم الملكي والمتحررين المؤيدين لفينيزيلوس. وخلال فترة قصيرة ظهرت في البلدة نوادي ومقاهي منفصلة كلٌ منها تتبع هذه الحركة أو تلك. معظم الأهالي كانوا ملكيين ولكن الأكثر ثقافة وعلماً منهم أيدوا فينيزيلوس. كان المعلم نيكوليس ملكياً متعصباً لدرجة أنه علق صورة العائلة المالكة في موقع ظاهر ومهم في غرفة الطعام الرئيسية.

تراجُع الجيش اليوناني في آسيا الصغرى أصاب الأب بحالة من اليأس وازداد يأسه عندما بدأ يورغو بالإعراب عن رغبته بأن يصبح طبيباً في الجيش. إلى أن هرع المعلم في مساء أحد الأيام نحو إبنه ملوحاً بالجريدة التي نقلت خبر «إعدام ستة» رمياً بالرصاص صارخاً في وجهه: «أتريد أن تنتمي إلى عصابة القتلة هذه؟ إنه لعلى جثتي».

Twitter: @ketab_n

اقترب موعد التخرج واعتقد يورغو و بكل ثقة أنه سينال الجائزة الأولى وطمأنه الأب يوفيرناليوس مدّرس الدّين وأكد له توقعه لكونه الطالب الأكثر تفوقاً بلا منازع. لكن للأسف جاءت شكوى من أحد المشرفين يقول فيها أن يورغو شوهد يمتطي حصاناً، وقد كان من المحرّمات على تلاميذ المدرسة. في يوم تخرج الدفعة الأولى المكونة من التلاميذ الستة، أعلن مدير المدرسة أن الجائزة السنوية التي تضمنت منحة مالية قدرها عشرة جنيهات قد منحت للطالب أندريا ديميتريوس وليس ليورغو حيث أن تصرفه كان دون المستوى المطلوب. استلم الخمسة تلاميذ الباقين شهاداتهم و ساروا في مظاهرة محتجين على الظلم الذي وقع على زميلهم إلى أن وصلوا إلى الشاطئ ليس إلا خوفاً من العودة إلى منازلهم ومواجهة غضب أهاليهم. في ذاك المساء وعلى مائدة الطعام قال الأب بصرامة: «لقد جلبت لنا العار». ومن بعد ذلك لم يتفوه أحداً بكلمة.

بعد العشاء استدعى المعلم نيكوليس إبنه إلى الغرفة وقال له: «لقد أمنت لك جواز سفر منذ شهر وهذه مئة جنيه، ستبحر على السفينة «الكميني» من بيراييس في أثينا. إمض في طريقك وكن حريصاً على ألا تجلب إلا الفخر والشرف لعائلتك».

أحسّ يورغو بضياع تام، فقد كان على علم بأن أباه يريده أن يكمل تعليمه في الخارج لكنه لم يتوقع مثل هذه السرعة.

في صباح اليوم التالي بعدما رست السفينة التي ستقله إلى اليونان في مرفأ لارنكا خرج يورغو باحثاً عن صالون للحلاقة وحلق شاربه لإظهار عصيانه وغضبه فحلاقة الشارب كانت ممنوعة منعاً باتاً في المدرسة.

Twitter: @ketab_n

اتكأ يورغو على حافة السفينة يراقب بلده تتلاشى شيئاً فشيئاً وعندها تنفس الصعداء. الآن فقط أصبح حراً، الآن فقط ملك نفسه تماماً. وفجأة بدأ يشعر بالجوع ودوار البحر.

وصلوا إلى «بيرابيس» عند الفجر وبدون أي إنذار غصت السفينة بالحمالين، يصرخون في آن واحد. تأبط يورغو حقيبته وبدون أن يعي وجد نفسه في فندق على شارع أيولو. هام طوال اليومين التاليين في أنحاء أثينا ثملاً بهواء المدينة الكبيرة وفي اليوم الثالث وبالصدفة قابل صديقين له من قبرص أخذاه إلى محلٍ لبيع الملابس العصرية، فاشترى بذلةً بيضاء، حذاءً أنيقاً وقبعةً من القش. ومن ثم أخذاه إلى فندقهم المدعو «سيسيل» في كيفيسيا ليقضي الأيام القليلة الباقية له معهم هناك إلى أن يتم شراء تذكرة سفره وكل ما يحتاج إليه للانتقال إلى ڤيينا. شعر بالشوق لرؤية ڤيينا، تلك المدينة العظيمة المليئة بالأساتذة الذين سيعلمونه كيف يستأصل الأضلاع من جسم الإنسان.

في القطار تعرف على مولوبولوس، إبن وحيد لعائلة ثرية، ترك بلده كذلك لأول مرة في حياته للدراسة في الخارج. لوث محرك القطار البخاري ملابس الركاب بالسخام. سافروا عبر سهول صربيا التي لا تنتهي. وفي أحد الليالي أفاق يورغو على صوت مجموعة من الغجر يرقصون حول نار مخيمهم وغمزته غجرية جميلة من خلال النافذة فأثارت أعصابه وأخجلته لكونه حديثاً على مثل هذه الأحاسيس، أما مونوبولس فاختفى معها وراء أحد الأكواخ.

وصل يورغو إلى ڤيينا في فجر اليوم السادس من أغسطس عام ١٩٢٤، أشعث الذقن، بذلته البيضاء، قبعته القشية، وحذاءُه ملوثين

Twitter: @ketab_n

بالسخام الأسود، فشعر بالمهانة وانهال عليه المطر فشعر أيضاً بالبرد ثم أضاع صديقه مونويولس في وسط فوضى وزحمة المحطة لكنه تذكر أن أهله حجزوا له غرفة في فندق «بريستول» وقرر أن يتجه إليه مباشرة. اقترب من أول سيارة أجرة وقال للسائق: «بريستول»؟ ألقى عليه السائق نظرة ازدراء وأقلع بدونه، فاقترب من سيارة الأجرة التالية وحصل الشيء نفسه. هنا فهم يورغو وقرر أن يخرج بعض النقود من حافظته ليري السائق الثالث أنه قادر على دفع الأجرة ونجحت خطته. كان فندق «بريستول» فندقاً فخماً وعظيماً، اصطحبه خادم الفندق إلى غرفة رائعة تطلّ على الحديقة العامة. اغتسل ونام بعد عناء السفر الطويل واستيقظ في منتصف النهار التالي ونزل إلى غرفة الطعام فرأى ثريات وتحفاً وسجاداً وأناساً بأجمل هندام فقال لنفسه: «هذه هي الحياة».

في صباح اليوم التالي دفع الفاتورة الباهظة واستقل سيارة أجرة ليبحث عن تلميذ قبرصي آخر يدرس في ڤيينا كان قد دس المعلم نيكوليس بإسمه وعنوانه في جيب إبنه عند وداعه. سكن ييراسيموس بتريدس في شقة على الطابق الخامس فسحب يورغو حقائبه الثقيلة إلى الشقة. فتحت له الباب سيدة بدت وكأنها استيقظت لتوها من النوم وأوصلته إلى باب غرفة ييراسيموس مقترحة بكسل ألا يوقظه لأنه نائم ولا يحبّذ الإزعاج. اختفت السيدة وجلس يورغو منتظراً على كرسي قديم في غرفة الجلوس محدّقاً بالورود الإصطناعية التي كانت أمامه وعلى رأس الغزال المحنّط بقرنيه وعينيه الصغيرتين البرّاقتين المعلق على الحائط المقابل. فاحت من اللوحات في الردهة رائحة الزمن والعفن. لم ير يورغو مثل هذا المكان في حياته حيث تراكمت التحف وملأت الغرفة، من

Twitter: @ketab_n

مزهريات و تماثيل خزفية، قطع أثاث مزخرفة ومنجدة بالمخمل، و كأنه محل لبيع الخردة. ملّ يورغو الإنتظار فقرر متردداً أن يفتح الباب، ففتحه وإذ به يفاجأ ببيراسيموس في الفراش مع إمرأة، لم ينتبها له، لكن يورغو أغلق الباب مسرعاً وعاد إلى كرسيه. بعد مرور ساعة أخرى من الزمن، مل تماما فدقّ على الباب، وهذه المرة فتح له بيراسيموس الباب مبتسماً.

ذهبوا لتناول الغداء في المطعم الذي يرتاده الطلاب القبارصة واليونانيين. استأجرا ليورغو غرفة في بيت السيدة مئير، أرملة ليس لها إلا مدخول تلك الغرف التي تؤجرها وبعض دروس البيانو كمورد لرزقها. لم يستطيع التحدث معها إلا القليل لأنه لم يتعلم اللغة بعد. ستفتح الجامعة أبوابها بعد شهر ونصف ويجب عليه أن يتعلم اللغة الألمانية في الحال. فذهب إلى مدرّسة لتعلمه. كانت هذه تؤشر على السكينة وتقول: «داس أيت أين مسر» أي: «هذا هو سكين» وبالطبع فهم يورغو كلمة سكين لكن باقي الجملة لم تعنِ له أي شيء ولم تملك المعلمة أية طريقة ممكنة لشرحها فاستسلم وتخلى عن الدروس الخصوصية. أخذ قاموساً بيده وهامَ في شوارع ڤيينا يقرأ اللافتات في الشوارع.

عندما تمكن يورغو من اللغة إلى حد ما بدأت السيدة مئير تحدثه عن أيام الإمبراطورية البائدة وتريه صور زوجها المرحوم الذي كان ضابطاً. كانت تغمغم بحزن وأسى: «آه يا فرانز جوزيف، كم أحب فرانز جوزيف» قاصدة الإمبراطور الذي رحل عام ١٩١٦ وكأنها تتكلم عن إبنها الغائب. امتلأ بيتها بصور الإمبراطور والإمبراطورة إليزابيث التي لقبها شعب النمسا بسيسي تحبباً. صور الخطوبة

Twitter: @ketab_n

والتتويج ومجموعات كاملة من الفناجين والصحون التذكارية لكل المناسبات الرسمية.

قالت: «مسكين فرانز جوزيف، هير دوكتور»، أي يا سيدي الطبيب كما كانت تسمي النزيل القبرصي مسترسلة: «تخيل أن يكون لك إبن ووريث وفجأة تجده ميتاً في العشرين من عمره، إنها حقاً لمأساة». اعتاد يورغو على رؤية صور الإمبراطورة إليزابيت المنتشرة في كل أنحاء البيت لدرجة أنه كلما رأى صورة لها في أي مكان آخر أحسّ وكأنه يقابل أحد معارفه وكانت أحبّ الصور إليه، صورتها بفستان أبيض مكللة بالألماس تلقي نظرة لعوبة إلى الوراء، وكانت الصورة الأكثر إنتشاراً في ڤيينا. دفعت السيدة مئير كل مدخراتها لتشاهد جنازة الإمبراطورة في كنيسة الرهبان الكبوشيين حيث دفن كل أفراد عائلة الهابسبورغ وكان كل ذلك فقط لتؤمّن لنفسها نافذة صغيرة تطل على الساحة العامة.

ڤيينا مدينة الأحلام، مشى فيها يومياً، زار المكتبات وردهات الجامعة والحدائق والمتاحف، أحسّ وكأنه في بلده، كأن وجوده هنا شيء طبيعي وعادي، كأنه ينتمي إلى هذا المكان حيث يزدهر الفن والعلوم. قرأ الكلام المنقوش فوق مدخل الجامعة فوجد أسماء كل من مرّوا من خلال هذه البوابات وأحسّ أنه هو أيضاً جزءٌ من هذه الحلقة.

في صباح أحد الأيام رأى وهو يمشي في شارع «رينغ ستراسه» متظاهرين يحملون أعلاماً حمراء ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، فالاشتراكيين بأعلامهم الحمراء والديمقراطيين المسيحيين بأعلامهم

Twitter: @ketab_n

السوداء صورة طبيعية تعكس الإضطرابات التي تلت الحرب. كثيراً ما أزعجت يورغو ضآلة معلوماته عن تاريخ هذه البلدة وتمنى لو كان معه حتى ولو كتاب تاريخ مدرسته الثانوية الهزيل. ومن شدة توقه لفهم ما يجري من حوله كتب لوالده رسالة يطلب فيها منه إرسال الكتاب.

عند حلول شهر سبتمبر سجّل في الجامعة. ألقيت المحاضرات في مدرج علم التشريح الكبير وحضرها ما يقارب الأربعمائة وخمسون طالباً، يستمعون بكل تركيز وصمت للمحاضرة التي يلقيها أستاذ متقدم بالسن ذو لحية كثيفة وصوت عميق. امتلأت القاعة، لم يعرف أحداً واضطر للوقوف في آخر القاعة لعدم وجود مقاعد كافية هناك. سمع لغات لا تعني له شيئا الآن لكن قريباً ما سيعرفها ويميزها، التشيكية، العبرية، الهنغارية، البولندية، الروسية، الإيطالية والرومانية فقد كتب حلف الولاء للإمبراطور في هذه البلد بإحدى عشرة لغة. كان من السهل تمييز بعض الطلاب من لباسهم الشعبي، اكتشف عالماً جديداً من حوله. كان أكثر الطلاب من الذكور فلم يتعدى عدد الإناث الثمانين، كان من بينهم الأميرة اليونانية إبسيلانتي. استمع يورغو للمحاضرات برهبة وشغف محاولاً استيعاب كل شيء.

بعد أن ترك مدرج علم التشريح أحسّ أنه وأخيراً اكتشف مكانه في هذه المدينة الغريبة ولم تفته محاضرة واحدة مع أنه لم يفهم كل ما كان يقال فيها. إنما شيئاً فشيئاً بدأ يميّز بعض الكلمات وبالاخص تلك التي كانت من أصل يوناني مثل بانكرياس ونومونيا وستيتانكي. غالباً ما أنهى يومه وهو يشعر كالغريق في مقهى «الاسباني الأسود» حيث يلتقي الطلاب اليونانيين والاسبان. «لا تقلق» قال له اليونانيون

Twitter: @ketab_n

الآخرون، «كلنا مررنا بنفس الشعور في البداية».

جال في ردهات الجامعة، في أبنيتها وحدائقها غير مصدق كم هو محظوظ لوجوده في مدينة بمثل هذا الجمال. قرأ عناوين الكتب في المكتبة، سقراط، أبقراط، غولينوس، إبن سينا، صلاح الدين الأيوبي، سافونارولا وتعجب عندما وجد الكتب الثمينة مثبتة بالسلاسل.

كان جاره الصربي الغريب الأطوار مرابطاً في المكتبة ليلاً ونهاراً وكلما حاول يورغو التحدث معه رد عليه باللاتينية:

«أغرب، أغرب سريعاً، بعيداً وإلى الأبد».

«ماذا»؟ تساءل يورغو.

«أغرب، أغرب سريعاً، بعيداً وإلى الأبد».

«أتريدني أن أذهب»؟ سأله يورغو.

«لا، لا، إنها الإجابة على ما إذا وجب على القسيس أن يبقى أم يرحل بعيداعن المصابين بالوباء».

أمضى معظم أيامه في مقهى «وولد» بالقرب من دار الأوبرا. فكان يصل مبكراً ليتناول فنجان القهوة ويتصفّح الجريدة اليومية التي بدأ يفهم عناوينها بالتدريج. في البداية التقى هنا باليونانيين ومع الوقت تعرف على عدد من الأجانب والممثلين الذين اعتادوا المقهى، كما تعرف على كل أنواع القهوة الفيينية فكان يجرب نوعاً جديدا منها كل يوم. يحضر له النادل أحياناً كوب من الماء مصحوباً برسالة مثل: «صديقك فلان يبحث عنك وسيقابلك هنا الساعة السادسة». وهكذا... كان نادلو مقاهي فيينا عموماً شخصيات متميزة ذوو سلوك راق، أذكياء، لبقين في الكلام ويتذكرون ما يميز

Twitter: @ketab_n

كل زبون وما يريده، حتى الجريدة التي يقرأها و قهوته المفضلة. كان يستمع للنادلين مبهورا وهم يسألون الزبائن: «كيف كان قائد الفرقة الموسيقية بالأمس؟» أو «من كان بديل للاعب الكمان الأول؟» امتلأ أحد أركان المقهى بجماعة من البلقان، الصرب والكرواتيين بصوتهم العالي ومناقشاتهم التي لا تنتهي. وفي ركن آخر من المقهى طاولة محجوزة دوما لرسام هنغاري إسمه أنتريفييتز، عالم روحاني له شعبيته في ڤيينا وقيل أنه كان ينوّم العارضة مغناطيسياً قبل أن يرسمها. حام حوله مجموعة تتكلم عن علم التخاطر والأوساط الروحانيين وما إلى ذلك. من أهم ميزات هذا المقهى كانت التدفئة، ففنجانان من القهوة كانا كافيان لمدّ الطالب بالدفء الكافئ، فالتدفئة اعتبرت مجرد رفاهية في غرف التلاميذ المستأجرة. لم يتعد المصروف الشهري عشرة جنيهات فضية ومهما حاول التلاميذ أن يدخروا باءت محاولاتهم بالفشل، فاقترضوا من نفس التاجر القبرصي الذي أتى من «لفكارا» ويملك محلين تجاريين في ڤيينا.

ظهرت في هذه الفترة أول الراديوهات، فاشترى يورغو راديو وقضى ساعات وساعات في غرفته يتنقل بين المحطات الإذاعية بدون توقف. اسمتع للموسيقى بشغف إلى أن استطاع تدريجيا أن يميز النوتات الموسيقية واعتبر الموسيقى أعظم ما اكتشفه في حياته خصوصاً وأن ڤيينا كانت مدينة الموسيقى. قضى الأوقات الطويلة برفقة أندرياس أويكونومو، التلميذ في الأكاديمية الموسيقية الذي اصطحبه إلى العديد من الحفلات والعروض الموسيقية. ذهب يورغو معه في البداية مرغماً ولكنه شيئاً فشيئاً بدأ يحب ويقدّر الموسيقى ويذهب بنفسه، ولكن لكونه مجرد تلميذ كان يشتري أرخص التذاكر ويحضر العرض واقفاً في آخر القاعة. أجادت السيدة مئير العزف

Twitter: @ketab_n

على البيانو وأوشك من شغفه بالموسيقى أن يطلب منها أن تعلمه العزف...

مرّت أول سنة دراسية، وبدأ يورغو يجيد اللغة الألمانية، لكن إلى الآن لم يكوّن صداقة مع أي من النمساويين.

اقترب وقت الإمتحانات وبدأ الطلاب النمساويين بالتحضير لإمتحاناتهم المقررة في شهر يونيو في حين سمحت الجامعة للطلبة الأجانب بمهلة ستة أشهر، أما يورغو وصديق له فقررا أخذ إمتحاناتهما في شهر يونيو. فأخذا كتبهما وقواميسهما وذهبا إلى قرية صغيرة خارج المدينة وداوما على الدراسة ليلاً نهاراً ومن ثم عادا إلى فيينا وتقدما للجنة الإمتحانات. استُدعي يورغو أولاً لتقديم امتحان علم الحيوان، كان الأستاذ هولندياً وجديد العهد في الجامعة، سأل يورغو عن إنقسام الخلايا. توترت أعصاب يورغو وسال العرق من على جبينه، فأغمض عينيه وتلى فصل انقسام الخلايا بأكمله بدون توقف. بعد مرور عشرة دقائق من تلاوته المتواصلة إستوقفه الأستاذ الهولندي قائلاً:
«لم أفهم كلمة واحدة مما قلته ولكن من الواضح أنك متمكن من هذا الموضوع تماماً، لذا سأمنحك درجة النجاح». لم تسعه الفرحة وسارع إلى ارسال برقية يبشر بها أهله.

كان حلمه التالي هو أن يراقب الأستاذ فون أيزلزبرغ يجري عملية جراحية. ولكي يصبح أي شخص جراحاً كان عليه أن يمر بمراحل عديدة، لكن يورغو لم يطق الإنتظار فأقنع أحد طلبة الصفوف العليا بإصطحابه إلى محاضرات الجراحة.

Twitter: @ketab_n

«لن تتحمل أعصابك رؤية كل الدماء» ونبهه صديقه، لكن يورغو كان مصراً ومصمماً. لم ينم لحظة في تلك الليلة من شدة تشوقه وتحمسه وعندما دخل المدرج ورأى مثله الأعلى خفق قلبه وكأنه مغرم هيمان.

غصت الغرفة بالمرضى والمساعدين وأخيراً، ظهر أهم جراحي العصر. كان نحيفاً متوسط البنية، ذو لحية بيضاء. تحدث فون أيزلزبرغ لمدة أربعين دقيقة شارحاً العملية التي سيقوم بها وتابع يورغو كل كلمة قالها وكأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي ومنذ تلك اللحظة، لم تفته أي من محاضراته. أتيحت ليورغو فرصة التعرف عليه عن كثب عندما رافق عدد من المرضى القبارصة الآتين إلى ڤيينا للعلاج. وكثيراً ما نوه له عن رغبته في أن يكون مساعداً له، لكن الأستاذ فون أيزلزبرغ كرر نفس التعليق بأن عليه أن يجتهد ويثبت نفسه وبعدها سيفكر في الموضوع. اشتهر فون أيزلزبرغ بالصرامة، فقيل أنه عندما أخطأ أحد مساعديه في إجراء عملية جراحية أقيمت على ساق مريض استدعاه، ووضع مسدساً على مكتبه وقال له: «أعتقد بأنك تعرف جيداً ما عليك أن تفعل». وخرج من الغرفة منتظرا سماع الطلقة. لم يقبل في العادة إلا مساعدين من الطبقة الأرستقراطية وليس إلا بعد اجتيازهم العديد من الإختبارات الصعبة، الصارمة والدقيقة. بالرغم من كل ذلك ظلّ يورغو متأملاً في أن يصبح مساعداً للأستاذ عاجلاً أم آجلاً.

أقيمت في آخر كل عام دراسي حفلة راقصة في القصر وكان لباس السهرة الرسمي إجبارياً، فاستأجر يورغو بدلة لكنه لم يتمكن من أن يربط ربطة العنق. فذهب إلى القصر وبكل براءة طلب من سيدة هناك أن تربطها له فلبت طلبه بسرور. رآها ثانية خلال الحفلة

Twitter: @ketab_n

تجلس وسط مجموعة كبيرة من الضيوف، ابتسمت له ودعاه زوجها لأن يشاركهم بالجلوس. كان الزوج رجل أعمال كبير و كانت هذه بداية علاقة صداقة حميمة معهما. عاش لوري وهانز في ڤيينا وأقاما العديد من الحفلات أيام الأحد.

أحسّ يورغو بالأمان في هذه المدينة وأحبّ أهلها وطيبتهم، وحبه لهذه المدينة بقي معه طوال حياته. فأول ما وصل إلى ڤيينا ذهب إلى دار السينما مع صديق له يوناني، تعرف صديقه هناك على فتاة ما وغادر معها تاركاً يورغو الذي لم يكن يجيد اللغة الألمانية بعد ولم يكن لديه أية فكرة عن كيفية الرجوع إلى منزله. أحس يورغو باليأس التام وكاد أن يغمى عليه من الجزع فدنا منه أحد المارة وسأله إن كان بخير او يحتاج للمساعدة، ولحسن الحظ يحتفظ يورغو في جيبه بورقة عليها عنوانه فأراها للرجل. مشى هذا الرجل الطيب معه ساعة كاملة إلى أن أوصله إلى بيته.

استمتع يورغو بالحانات في ڤيينا ووجد أن أفضلها كان على أطراف المدينة وبالقرب من الغابة، وكانت معظمها عبارة عن مباني بسيطة فيها مغنين محليين، النبيذ رخيص لكنه جيد وفي العادة يكون مصحوباً بالسجق والنقانق. كانت الحانات مفتوحة للجميع، جوها لطيف خال من الرسميات والتعقيدات يسهل التحدث والاختلاط مع الرواد وهكذا تعرف يورغو على بعض النمساويين معرفة دامت سنين طويلة.

أقام إتحاد الطلبة اليونانين نشاطات عدة، من أهمها إجتماعات «النيوهيلينين»، وهي مجموعة سياسية أسسها نيكولاوس بوليتيس

Twitter: @ketab_n

في باريس، هدفها الأساسي مساعدة الطلاب اليونانين على التقدم ثقافياً وعلمياً ليعودوا إلى اليونان وينهضوا ببلدهم من مآسيها. لامست محاضراته قلوب الكثيرين من الطلاب ولفترة من الزمن كانت الجمعية فعالة بالمحاضرات والرحلات وزيارات المتاحف ولكن عندما بدأ نفوذ بوليتيس يضعف بدأت المشاجرات بين الطلاب تنافساً على مركز رئاسة المجموعة، ومع هذه المشاجرات تضاءل اهتمام يورغو بالإتحاد ككل وعاد إلى أصدقائه القدامى.

بدأت محاضرات السنة الدراسية الثانية وبدأت معها دروس علم التشريح العملية. ردة فعله الأولى كانت مريعة فبدا قبو بناية علم التشريح وكأنه بركة من جثث النمساويين الفقراء. نزل الطلاب إلى القبو مع أحد أعضاء الإدارة ليختاروا جثثهم وبالطبع كانت الجثث الأضخم هي الأكثرطلباً. شرّح يورغو الأعضاء المتعددة يومياً لمدة عام كامل وكان التشريح آنذاك بدائيا ومُزريا ولم يسمح للطلبة بارتداء القفازات فاخترقت رائحة الفورمالدهيد النفاذة كل شيء. ومهما غسلوا أيديهم وأنفسهم وثيابهم، ظلت تلك الرائحة الكريهة عالقة في كل شيء.

كلما رآه أستاذ علم التشريح تلا أجزاء من الملحمة الأوديسية لهوميروس مما أشعر يورغو بالذنب لأن علمه بها كان أقل بكثير مما يعتقده أستاذه وشكّ أيضاً أنه يعامله معاملة خاصة لا يستحقها بسبب أصله اليوناني. تنتهي محاضرات علم التشريح يوميا في الساعة السادسة مساءً وغالباً ما يذهب بعدها إلى المطعم المقابل لتناول العشاء المكون من الحساء، البطاطا المسلوقة والمقانق. تناول العشاء ذاته يوما بعد يوم مصحوباً برائحة الفورمالدهيد

Twitter: @ketab_n

على الدوام. كان المطعم تحت الأرض وأجمل ما فيه كانت هيلجا، النادلة التي استلطفت يورغو وحجزت له يومياً طاولة في الركن وملأت له طبقه أكثر من غيره. دفع أغلب الطلاب شهرياً ثمن هذا العشاء الغير ممتع والمكون في العادة من العدس، حبوب الفاصولياء، البطاطا وشيء ما يشابه اللحمة بالرائحة لا أكثر. غازلته هيلجا الشقراء ذات الصندل والجوارب البيضاء القصيرة. كانت تشيكية من شمال براغ وكثيراً ما حدثته عن بلدها. التقيا بضعة مرات لكن لم يأخذا العلاقة بجدية. بعد تناوله العشاء كثيراً ما ذهب يورغو إلى دار السينما من الساعة السابعة إلى التاسعة، ألقى بنفسه هناك على مقاعدها الوثيرة محاولا أن يستريح من عناء يومه الشاق وتلك الرائحة الكريهة.

كان من الطبيعي ان يصاب بعض الطلاب بالمرض بسبب الشتاء القارص، قلة التدفئة، سوء التغذية والإجهاد. ومن أخطر الأمراض على الطلبة كان السل لأنه في الغالب ما أدى إلى انقطاعهم عن الدراسة وترحيلهم إلى المصحات. الطالب اندريا اريستيس كان أحد هؤلاء، فقد أصيب بمرض السل وكلما استرد صحته عاد وانتكس ثانية. حتى أنه في يوم الجمعة الحزينة ساءت حالته لدرجة أن يورغو بعث ببرقية لأهله تنبئهم بأن لا أمل من شفائه فقد أصيب اريستيس بنوبة سعال خطيرة كادت تؤدي بحياته، لكنه شفي منها. ازداد يورغو احتراسا من هذا المرض بعد ذلك الحادث، رغم إيمانه بأن كثرة تعرضه للشمس والبحر أيام طفولته أنقذه من الإصابة بهذا المرض في أيام الدراسة .

ساعدته زياراته للجوزيفينوم كثيراً في دراسة علم التشريح. الجوزيفينوم، اكاديمية للجراحة أسسها الإمبراطور جوزيف الثاني

Twitter: @ketab_n

عام ١٧٨٥ ليروج علم الطب في وقتٍ كان التخدير والتعقيم لا وجود لهما. أوصى الإمبراطور على تصنيع أكثر من ألف تمثال شمعي في إيطاليا، تلك التماثيل والتوضيحات التي كتبت في أسفلها باللغتين الألمانية واللاتينية هي التي ساعدت يورغو كثيراً على حل الأسئلة المطروحة. لم تكن أول زيارة للجوزيفينوم أقل من فيلم رعب، امرأة جميلة، عارية، بطنها مفتوح بأكمله وأحشائها مكشوفة ومفصلة بشكل مخيف، طوق رقبتها عقد من اللؤلؤ، سماها الطلاب أندريانا تيمناً بأشهر أوبريت في ذلك الوقت، «أندريانا الجميلة» وكلما قالوا: «ذهبنا لأندريانا» لم يعنوا سوى أنهم ذهبوا إلى الجوزيفينوم. كان المسؤول هناك هنغارياً إسمه ساراجيفيتس، أحب يورغو وسمح له بأن يستعير الكتب التي يحتاجها من المكتبة.

لاحظ يورغو في أحد الأيام، فتاة تقطن في المنزل المقابل لمنزله وبدأ يراقبها. جلب انتباهها وكثيراً ما ابتسمت له. ومرةً رأى شاباً على الشرفة ذاتها يومىء له بأن يأتي. أفزعه ذلك لدرجة أنه أسدل الستارة بسرعة دون أن ينظر خلفه. دق الشاب نفسه باب يورغو في اليوم التالي وبعد محادثة لطيفة دعاه إلى بيته لشرب القهوة. اتضح أن هذا الشاب الثلاثيني كان زوج ليزا، تلك الفتاة التي دأب يورغو يغازلها لمدة خمس سنوات مضت. كانوا يهوداً من العائلات التي استقرت في ڤيينا منذ مئة عام، كان الشاب محامياً ومشجعاً لكرة القدم وليزا من عشاق الموسيقى والرقص. أصبح الثلاثة لا ينفصلون وأشركوا يورغو في ناديهم، ارتادوا المسارح بكثرة وذهبوا إلى العديد من حفلات الرقص، هكذا وبالتدريج ابتعد يورغو عن حلقة الطلاب اليونان.

Twitter: @ketab_n

كثيراً ما اجتمعوا في بيت السيدة واينفيلد، إحدى قريبات ليزا من بعيد. السيدة واينفيلد سيدة أربعينية، ذكية، لطيفة، متزوجة من رجل أعمال من وارسو لم يقابله يورغو أبداً. عاشت وحدها مع خادمة صربية إسمها ستراڤكا في بيت كبير بناه جدها منذ أن شيّد شارع «رنغستراسا» وانتقلت إليه العائلة من «ليوبولدشتاد». كان للبيت سلم فخم يصعد إلى الطابق العلوي وأول مرة رآى يورغو فيها ماريا واينفيلد، أبهرته وهي تقف على أعلى السلم بعينيها الزرقاوتين الخارقتين وشعرها الأشقر المتموج.

قدمته لها ليزا قائلة: «الشاب اليوناني». وترك دفء مصافحتها له شعوراً لذيذا في نفسه. جلسوا في الصالة حيث سألته ماريا عما إذا كان يحب ڤيينا وكيف أنه قرر أن يدرس الطب وفي تلك اللحظة، انعكس ضوء النافذة ذات الزجاج الملون من يمين السلم على شعرها الأشقر فغدا كالذهب الأحمر المتوهج. استمتع يورغو بهذه الأمسيات وجلس وسط ذاك الأثاث الفاخر المزخرف في بيت ماريا واينفيلد وكأنه يعيش هناك منذ الأزل. قبرص، فاماغوستا والبحر غدوا ليس أكثر من حلم بعيد كما لو أنه لم يعش أبداً في أي مكان سوى هذه المدينة بموسيقاها ومسارحها وكأنه كان طوال عمره محاطاً بمثل قطع الأثاث الفخمة تلك، الصور الزيتية للمناظر الريفية على الجدران، أغطية المصابيح المطرزة بالخرز والمناضد الصغيرة المزخرفة.

ماريا واينفيلد، إمرأة تعرف كل شيء، تعرف ما يعرض على المسارح، الحانة التي تقدم أحسن النبيذ، حتى تاريخ ڤيينا عرفته وكأنه تاريخها هي. أعجب يورغو بها كل الإعجاب قائلاً في نفسه: «هكذا تكون النساء». مالت بدورها إليه واستمتعت جداً بمشاركته

Twitter: @ketab_n

كل ما تعرف، لكن حياتها اتسمت بشيء من الغموض بسبب غياب زوجها الدائم وعدم ذكرها له على الإطلاق. حتى إبنتها الوحيدة كانت غائبة تدرس في باريس. غلبه الفضول فحاول أن يجد صورهم العائلية، لكن بدون جدوى وكل ما استطاع أن يجده هو صورة لإبنتها وهي طفلة في منزلهم الصيفي على البحر في أوباتيا، فقط لا غير. كان لوالد ماريا الذي توفى منذ بضعة أعوام، صفقات تجارية مع الدول البلطية حيث يستورد الكهرمان، الجلد والأخشاب. اعتادت ماريا واينفيلد أن تجلس على ذات المقعد الأخضر محاطة بالمذياع، الجرامافون والهاتف. تخرر قطتها ماغي عند قدميها ولكن ما أن يحاول أحد أن يقترب من ماريا هسهست عليه. كان من الواضح جداً أن ماريا قد أحبت الشاب القبرصي وأخذته تحت جناحيها. كان لها أصدقاء كثيرون، فالجالية اليهودية في ڤيينا كانت جالية كبيرة في ذاك الوقت، قاربت المائتي الف يهودي، معظمهم لاجئين من بولندا. لم يكن لليهود ألقاب أو كُنى عند وصلوهم، لكن القانون الإمبراطوري أجبرهم على اتخاذها أو تبنيها فاختار أكثرهم أسماء ألمانية للزهور أو النباتات لذلك كان من السهل التعرف على أصلهم اليهودي من ألقابهم. كانوا شغولين ومخلصين لجاليتهم، لذى وبالتدريج أمّنوا مراكز مهمة عديدة في المجتمع فكان اليهودي منهم يسير أميالاً لمجرد أن يشتري من يهودي آخر. عاشوا في ڤيينا في منطقة «ليوبولدشتاد» أي مدينة «ليوبولد» وعندما أثروا تركوا ذلك الحي اليهودي واشتروا منزلاً فخماً في المناطق السكنية الراقية. أتيحت ليورغو الفرصة ليرى كيف ينجح اللاجؤون اليهود المعدمون القادمون من وارسو في فترة وجيزة في مثل هذا المجتمع اليهودي المتماسك فقد كان مندوبين الحزب الإشتراكي، محافظ مدينة ڤيينا، قائد دار الأوبرا والعديد من أساتذة الجامعة من اليهود، وحتى أكبر

Twitter: @ketab_n

دور الصحافة كانت تحت نفوذ الإشتراكيين منهم. فمثلاً حين يقدم موسيقي يهودي عرضاً موسيقياً تمتلىء الصالات تماماً فقد كانوا يعلمون كل اعضاء المجتمع عنها ويحثونهم على الحضور. عاش المجتمع اليهودي في أوج عصره الذهبي عندما بدأت المشاكل تتفاقم وكان اكتساب هتلر تأييد النمسا واندفاع النمساويين للوطنية البحتة مجرد ردة فعل لقوة المجتمع اليهودي هناك. ازدادت الإستعراضات العسكرية كما ازدادت الإعتداءات على الأجانب واليهود.

قرّب أنف يورغو المميز شبهه باليهود، ومرافقته الدائمة لفرانك وليزا وعلاقاته الوطيدة بمجتمعهم أيضاً دعت البعض للإفتراض بأنه بالتأكيد منهم. لكن يورغو لم ير سبباً لمحاولة إثبات العكس.

في شهر يوليو من عام ١٩٢٨ دعته ماريا إلى مصيفها في «أوباتيا»، كان مصيفاً صغيراً ورائعاً على شاطئ البحر الأدرياتيكي حيث عشق يورغو تلك المنازل الفسيحة، الحدائق الجذابة ومنظر البحر الذي ذكره ببلدته متجاهلاً تذمُّر والده بأن إبنه البكر نسي أهله تماماً. فخلال كل سنين دراسته في ڤيينا لم يعد يورغو إلى الجزيرة للزيارة ولو لمرة واحدة.

كانت الأمسيات في «أوباتيا» خلابة وحفلات العشاء على البحر رائعة. ذات ليلة وهم يتمتعون بأطيب أكلات الطاهية المحلية وصلت برقية لماريا، قرأتها، شحب لون وجهها وقالت:

«بعد ظهر الغد سيصل زوجي وأتمنى لو أن الجميع يتصرف كاليهود المحترمين».

Twitter: @ketab_n

لم يكن لدى يورغو أي فكرة عن تصرف اليهود المحترمين إلى أن أتى صباح اليوم التالي وجاءت ماريا إلى مائدة الإفطار ومعها قلنسوة لكل منهم. بعد ظهر ذلك اليوم ذهب الجميع لاستقبال السيد واينفيلد الذي وصل من وارسو. كان قصير القامة مرتدياً اللون الأسود تماماً وسوالفه ملفلفة كما هي علامة اليهود الأورثوذكسيين. لبس الجميع قلنسواتهم وصلّوا قبل تناول الطعام. حاول السيد واينفيلد بلغته الألمانية الركيكة أن يعرف من يورغو أكثر عن قبرص، عن الفرص التجارية فيها وما تصدره الجزيرة، ولم يجرؤ يورغو أن يخبره بأنه ليس يهودياً. كان من الواضح أن علاقة ماريا بزوجها جيدة بالرغم من أنهما منفصلان، لكن يورغو لم يفهم أساس هذه العلاقة ومفاجأة تلت الأخرى، فبعد يومين وصلت برقية أخرى تعلن عن وصول الإبنة.

كانت جينا في العشرين من عمرها، فاتنة يفوح منها الجو الباريسي ولأن يورغو كان الأصغر سناً كان من الطبيعي أن يقوم بدور المرافق. قضيا الوقت سوياً في البحر، في حفلات الرقص والرحلات مما سبب قلقاً واضحاً للسيد واينفيلد فبدأ يسأل يورغو عن عدد اليهود في قبرص وإن كان لهم كنيس هناك ومتى وصلوا إلى قبرص وكان من الواضح أن هناك شيئاً يزعجه في هذه القصة فقد كان الأب شديد الذكاء وأحس يورغو بعيونه مسلطة عليه طوال الوقت. لم يعد يستطيع الإنتظار ليعود السيد واينفيلد إلى وارسو. وفي عصر أحد الأيام وبعد تناول الغذاء، اقترح السيد واينفيلد عليه أن يتمشيا معاً. فقطعا الممشى الجميل وساروا في طريق ضيق يؤدي إلى الكنيس، وجدوا الباب مفتوحاً فاقترح السيد واينفيلد أن يدخلا ويؤديا الصلاة، لم يستطع يؤرغو أن يرفض الدخول، فصعد السلم

Twitter: @ketab_n

ليدخل وبحركة لا شعورية خلع القلنسوة من على رأسه. فضحته هذه الحركة في الحال فاليهود لا يخلعون قلنسواتهم عند دخول الكنيس.

هنا وبصوتٍ هادئ قال له السيد وينفليد: «السيد الطبيب، ستستقل أول قطار مغادر ولا أريد أن أراك ثانية في بيتي». انسحب يورغو الذي لم يرغب بالتورّط من الأساس وعاد إلى دراسته على الأثر، أزعجته هذه الحادثة للغاية ولكن لحسن الحظ استطاعت ماريا بنظرة واحدة أن تطمئنه قبل خروجه بأنها ليست غاضبة منه على الإطلاق.

اقترب موعد إمتحان علم تشخيص الأمراض وكان عميد القسم هو الأستاذ شفوستك، رجل غريب الأطوار، حليق الرأس، يرتدي سترة قذرة ونظارات هلالية الشكل، كان منبوذاً من المجتمع ولكنه يُعتبر من أعظم أساتذة عصره في هذه المادة. ابتدأت محاضراته في الساعة الثامنة صباحاً، منع النساء من الحضور، يدخل مساعديه المرضى ذوي الحالات الصعبة ويستمع الأستاذ بكل دقة لتاريخ المريض ومن ثم يشخص الحالة مستخدماً السماعة وحاسة اللمس فقط. اشتهر بتشخيص حالة سرطان المخ، وكلما مات مريض هرع الأطباء إلى المشرحة ليتأكدوا من صحة تشخيصه، وفي بعض الأحيان تراهنوا فيما بينهم.

أجاد الأستاذ شفوستك اللغة الإغريقية القديمة بامتياز كمعظم الأساتذة بالطبع، وكم شعر بخيبة الأمل عندما ذهب إلى اليونان واكتشف أن لا أحد يفهمها. ومع أنه كان غريب الأطوار ويبغض النساء إلا أنه كان أستاذا عادلاً ومنح الطلبة درجات جيدة. في أحد الأيام وقف عشرة من الطلبة حول سرير أحد المرضى بانتظار حضور

Twitter: @ketab_n

الأستاذ وكان بين هؤلاء طالب مصري أحبه يورغو لطيبة قلبه لكنه لم يفهم شيئاً في الطب. كثيراً ما كانت الممرضة تبوح بالتشخيص للطلبة مسبقاً مقابل حفنة من النقود ولسوء حظ الطالب المصري أن نُقل مريضه المصاب إلى مكان آخر وحلّ محلّه مريض آخر مصابٌ بالاسهال. حضر الأستاذ وسأله أن يشخص الحالة فأجاب بتسرع:

«ذات الجنب».

«وكيف شخصت الحالة بذات الجنب يا سيد عبدالله»؟ سأله الأستاذ فأجاب: «من الرائحة».

صمت الجميع.

«ومن أين تعلمت تشخيص حالة ذات الجنب من الرائحة»؟

«من أبي يا أستاذ!»

«وأين يمارس والدك الطب وما حالته المالية»؟

«في مصر يا أستاذ وهو يمارس الطب منذ خمسة وعشرون عاماً وحالته المادية ممتازة!»

«حسناً إذن! بما أن والدك يزاول عمله كل هذه السنين، وإيراده عالٍ ولم يحاول أحد من أهل بلده أن يقتله فسأعطيك أعلى علامة لتسير على خطاه».

حضر يورغو كل العمليات التي أجريت في المدرج، وحين طلب أن يعمل في العيادة كمساعد خارجي، وافق الأستاذ شفوستك. أراد أن يبني معلوماته في علم تشخيص الأمراض لينمّي تخصّصه في الجراحة، لهذا كان يعمل فى العيادة كل صباح وكل مساء بالإضافة لمحاضرات الجامعة المقررة. في أثناء إجرائه للعمليات كان الأستاذ يسترسل باللغة الاغريقية مما وضع يورغو في حالة من اليأس فلم يفهم كلمة واحدة مما يقوله الأستاذ فقد كان الفارق شاسعاً جداً بين

Twitter: @ketab_n

أساتذته العاشقين لكل ما هو إغريقي وجهله باللغة لدرجة أنه فكّر في أن يأخذ دروساً في الإغريقية القديمة.

دارت الكثير من الشائعات حول شفوستك، فقيل مثلاً أن امبراطورة النمسا أصيبت بالشلل في قدمها ولم يستطع أحد أن يشخص حالتها فاستدعوه بشرط أن يرتدي ملابس ملائمة لملاقاة الإمبراطورة، لكنه رفض فاضطروا إلى أن يقبلوه كما هو. دخل إلى غرفة الإمبراطورة وبدون حتى إلقاء التحية اللائقة، أمرها قائلا: «إخلعي ثيابك يا امرأة!» و كادت الوصيفات أن يغمى عليهن. شمّ قدمها ونظر حوله إلى الحائط المدهون حديثاً وقال: «تسمم من الرصاص».

نقلوها إلى غرفة اخرى فزال الشلل من قدمها تماماً.

و قيل أيضا أن ملك ألبانيا زوغو أتى إلى ڤيينا للفحوصات، نزل في فندق إمبيريال وطلب من الطبيب الأستاذ أن يأتيه إلى الفندق فرفض مصراً على أن يأتي الملك بنفسه إلى العيادة وينتظر كعامة الشعب وباقي المرضى.

لم يكن شفوستك يهودياً لكنه كان ينتمي إلى جمعية مثيرة للعجب تدعى أولمبيا. التقى أعضاء هذه الجمعية من حين إلى حين لتناول العشاء والمبارزة. سبّبت تلك المبارزات الكثير من الجروح في وجوه المبارزين، جروح عميقة تتطلب أن تُخاط على الفور، وإن تجرأ الجريح وأظهر أي من علامات التألم أنزلوا رتبته في الجمعية بدون جدل مع العلم أن الخياطة كانت تتم بدون أي تخدير. تفادى يورغو مثل هذه الجمعيات حيث كانت بطبيعتها عدائية نحو الأجانب. لكن

Twitter: @ketab_n

عندما دعاه أستاذه إلى الحانة التي كانت بمثابة الملتقى الدائم لأعضاء الجمعية إضطر لقبول الدعوة بدون أدنى فكرة عما ينتظره.

جلس الأستاذ على رأس الطاولة ومن حوله كل مساعديه ومحاضريه، ووزعت البيرة على الجميع في أوعية فخارية، تلا ذلك النبيذ وألزم الجميع بشربه في جرعة واحدة. لم يكن يورغو مغرماً بشرب الكحول أبداً فبالكاد استطاع أن ينهى أول كأسين. وعند وصول الكأس الثالث شعر بغثيان فتوقف، هنا سمع صوت أستاذه يصرخ: «يورغو! عقاب». ومعنى ذلك أنه مرغمٌ على شرب كأسٍ آخر. في صباح اليوم التالي انتشلته صاحبة البيت من المزراب ولم يتذكر يورغو شيئاً من كل تلك الليلة سوى أن أحد المحاضرين خلع سرواله ورقص على الطاولة.

لم يستطع يورغو التأقلم مع مثل تلك العادات الهمجية وحاول تفاديها بأي ثمن، لكن ما صعب تصديقه هو مدى الإنضباط الذي كانوا عليه. ففي اليوم التالي كانوا جميعاً في مناصبهم بدون أي رفع للكلفة وكأن شيئاً لم يحدث الليلة الماضية. في النهاية تزوج الأستاذ شفوستك، عدو المرأة اللدود، من طباخته واشترى قلعة محاطة بخندق مائي لا يصله بالعالم الخارجي سوى جسر خشبي متحرك. كل سنة، يدعو الأستاذ جميع زملائه إلى وليمة تدوم أربعة وعشرون ساعة، وعند إنتهاء الوليمة يطرد الخدم كل المدعوين ويسحبون الجسر الخشبي حتى السنة التالية.

لم تسبب أية مادة الأسى ليورغو كما سببته له مادة الجريمة، فلم يجد فيها أية متعة ومع أنّ الأستاذ هابيرلا الذي يهابه ويبغضه

Twitter: @ketab_n

جميع الطلاب كان غائبا لمدة ستة أشهر إلا أن مساعده الذي أجرى الإمتحانات بالنيابة عنه كان لا يقل عنه كراهة، فقد اشتهر الأستاذ واينغارتنر بترسيب الطلاب بلا تمييز. يوم أخذ يورغو الإمتحان، نشرت الجرائد النمساوية مقالة لمجموعة من الطلاب البلغاريين متهمين الأستاذ واينغارتنر بإتخاذ موقف غير شرعي تجاههم، وفي اللحظة التي دخل يورغو فيها إلى غرفة الإمتحان أحس بجوٍ من الإضطراب يسودها فجأة. سأله واينغارتن على الفور عن أصله وإن كان قد وقع العريضة ضده، ولما ردّ عليه يورغو قائلاً بأنه من قبرص، أجاب الأستاذ: «إذن أنت آتٍ من جزيرة المجرمين ورماة السكاكين. قل لي إذن، ماذا تعرف عن إصابات الطعن»؟ لم يتوقع يورغو مثل هذا السلوك فصُدم. ردّ يورغو على السؤال بسطحية وتجرأ بالقول أن معلومات مساعد الأستاذ كانت غير صحيحة بتاتاً بخصوص الجزيرة.

«لا يمكنني القول أن اجابتك كانت مُرضِية». وأكمل الأستاذ قائلاً: «لكن دعني أسألك عن شيء أنا متأكد أنك خبير فيه، كلمني عن غشاء البكارة». صدم يورغو أكثر وكاد أن يموت من شدة الحرج لولا أن المتحدث بإسم الحكومة المشرف على الإمتحانات تدخل بالحال وأنقذه.

نصحوا يورغو بقضاء عام كمساعد في علم تشخيص الأمراض قبل أن يبدأ بالتخصص في علم الجراحة وكان أشهر الأساتذة في ذاك الوقت هو إردهايم، الطبيب في مستشفى مدينة ڤيينا بالقرب من أكبر دارين للعجزة. استأجر يورغو غرفة قريبة من المستشفى وبدأ في العمل. شرّحوا ما بين عشرين وثلاثين جثة يومياً حيث كان التشريح إجبارياً عند كل وفاة، فعملوا بتواصل من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً. وفوق هذا

Twitter: @ketab_n

وذاك، اعطاه الأستاذ موضوعاً ليجري فيه بحثاً. في آخر كل ليلة استدعاهم إردهايم إلى مكتبه ليطمئن على تقدمهم بأبحاثهم وإن تجرأ وغاب أيٌّ منهم إنطبقت السماء على الأرض. بعد مضي شهرين من بداية عمله في مستشفى مدينة ڤيينا، تلقى يورغو رسالة تنبؤه بإستغنائهم عن خدماته إبتداءً من الشهر المقبل، دقّ كل الأبواب محاولاً إقناعهم بتغيير رأيهم أو بأن يسمحوا له بإنهاء بحثه على الأقل، لكن بدون جدوى فكانت الإدارة عنيدة. جمع حاجاته عند نهاية الشهر وطلب من البواب أن يستدعي له سيارة اجرة. أحب هذا البواب يورغو لكرمه الدائم معه فسأله يائساً: «فريتز، هل تعرف لماذا صرفوني؟»

«لأنهم اعتقدوك يهودياً. فأنت لست الأول ولا الأخير، فحتى بعدما علموا بأنك لست يهودياً، أرادوا أن يتخلصوا منك».

«ولكن كيف أبقوا عليك؟»

قال فريتز: «أنا هنا منذ زمن طويل جداً، بالاضافة إلى إنني عضو في الحزب الإشتراكي، لم لا تنتسب للحزب؟»

في المساء التالي، دق جرس باب ماريا واينفيلد بقلب مثقل وعندما فتحت له الباب صرخت: « الشاب اليوناني!» وأخذته بالحضن قائلة: «أين كنت كل هذه الفترة ولِمَ لم تتصل بي». شرح لها ما حصل مع المستشفى.

«يا لك من مغفل، فليست هذه بالطريقة الصحيحة للتعامل مع مثل تلك المشكلة، لِم لم تأتِ وتطلب مساعدتي من قبل؟ أنا سأتصل بالأستاذ».

Twitter: @ketab_n

خاف يورغو وغضب ولم يعد إلى المستشفى لكنه أنهى بحثه وأرسله للنشر في مجلة جمعية ڤيينا الطبية ووافقوا على نشره. كان هذا أول بحث علمي ينشره ومصدر فخر عظيم. أصرَّت ماريا على ألا يدع الأمر كما هو وأعطته فرصة ليفكر بضعة أيام ثم دعته للعشاء قائلة: «تفضل للعشاء يوم الثلاثاء المقبل وسنرى».

يوم الثلاثاء دقّ يورغو جرس باب البيت الواقع على شارع «رتنغستراسا»، سمع خطوات الخادمة قادمة، فتحت الباب الحديدي الثقيل وقادته إلى غرفة الجلوس حيث وجد ماريا منشغلة بمساعدة إمرأة متقدمة في السن على شرب الشاي. ابتسمت قائلة: «أود أن أعرفك على أمي، باتينا زيلر». وأكملت مخاطبة أمها: «أقدم لك، يورغو، طبيباً في عيادتك». وهنا تذكر يورغو أين رآها من قبل.

«ذهبت أمي إلى العيادة بسبب مشكلة في نظرها، وتحسّنت فأحضرتها إلى البيت. ولكنها تعاني الآن من آلام شديدة في أسفل بطنها وقد تحدثت مع أخي، أحد مؤسسي الحزب الإشتراكي، ليكلم الأستاذ إردهايم. ستعود أنت إلى العيادة لتهتم بأمي، أليس كذلك يا أمي؟» أومأت السيدة زيلر برأسها وأبعدت ماريا فنجان الشاي.

«تعاني أمي من علل وأمراض مزمنة عديدة وقضت المسكينة جزءاً كبيراً من حياتها في المستشفى، فلم تعد تؤمن بأن الأطباء قادرون على مساعدتها. لم يعرف طبيب التشخيص ما بها فأحالها إلى الأطباء النفسيين الذين عالجوها بواسطة صدمات كهربائية، حمامات ساخنة وباردة وأمثال تلك الطرق التي جعلتها تكره

Twitter: @ketab_n

كل الأطباء وتعتبرهم عاجزين، غير كفوئين وعديمي الفائدة. من دافع اليأس أخذها أبي إلى الدكتور فرويد ذو الصيت الذائع بين الأخصائيين النفسانيين لكنها كرهته أكثر من غيره. بل واعتبرت نظرياته في الجنس مشينة ورفضت مواصلة العلاج معه بعد زيارتين فقط».

عاد يورغو إلى عمله في المستشفى وكان أول ما فعله هو أن يجد ملفات السيدة زيلر ودراستها بتأني فوجد التشخيص الطبي يصف حالتها بالهستيريا، إنما في الواقع وجد يورغو أن المرأة تعاني من مرض الزّهري المزمن الذي كان منتشرا في تلك الأيام. فكانت الفتيات تتزوجن في ريعان شبابهن من رجال مصابين بالمرض وعند بداية الأعراض غالباً ما اعتقد الأطباء أنها هستيريا دون أن يعيروا أي انتباه للتشخيص الجاد. فكانت النتيجة أن المصابات عانتن طوال حياتهن من دون أية فكرة عن الداء الذي أصابهن ولا كيفية علاجه. في نهاية المطاف أثر الإلتهاب على القلب ثم على العيون فالمخ. زارت ماريا أمها في العيادة كل يوم جمعة وجاء أخوها فرانز كلّ يوم أحد. احتل فرانز مركزاً مرموقاً جداً في الحزب الإشتراكي وكثيراً ما سافر في مهمات رسمية. أما يورغو فقد زار السيدة زيلر كل يوم حتى اعتادت على زياراته ونمت ألفة عجيبة بينهما وبدأت باتينا تحكي له عن حياتها بالتدريج.

لقد كان زوجها فيليب زيلر تاجراً كبيراً كثير السفر إلى البلاد البلطية وكانوا يملكون بيتاً في «ريغا» يقضون فيه فترات متقطعة. لم تشعر باتينا أبدا بالراحة هناك ولم تعرف سبب ذاك الشعور إلى

Twitter: @ketab_n

أن اكتشفت أن لزوجها عشيقة روسية. وبدأ يقضي فترات أطول فأطول في «ريغا». تاجر فيليب بالكهرمان وكلما عاد إلى ڤيينا أتى لها بقطعة من المجوهرات مصنوعة من الكهرمان فكرهت مجرد النظر إلى قطع الكهرمان الذي يذكرها بالمرأة الأخرى. في «ريغا» ورثت باتينا عن أبيها مطعماً فخماً، اشتُهر بأطباق لحوم الحيوانات البرية فحتى هذه الأكلات منعت باتينا طبخها في بيتها حتى لا تذكرها بذاك المطعم الملعون ذي المقاعد الجلدية الخضراء، الستائر الحريرية الثقيلة ورؤوس الغزلان المحنطة المعلقة على الجدران. عانى زوجها من مشاكل صحية أيضاً و لكن لسبب ما كانت تتلاشى كل الأعراض بمجرد ما أن تطأ قدماه «ريغا». قلّت زياراته لڤيينا شيئا فشيئاً فأغرقت باتينا نفسها بتربية ورعاية طفليها وبيتها وبالرغم من ذلك بدت حياتها خالية. لعبت «البريدج» في الأمسيات، الشيء الوحيد الذي أحست بحماس نحوه وكانت ماهرة فيه. في تلك الفترة ظهرت أعراض مرضها وبدأت تعاني من أوجاع الرأس، آلام المفاصل وعلل عامة في جسمها. شعورها بالفراغ أيضاً جعلها تعزم على إعطاء أولادها أفضل الفرص الممكنة في الحياة فبعثت بإبنتها ماريا إلى أول مدرسة ثانوية افتتحت للبنات في ڤيينا. وذهب فرانز إلى الجامعة، ودرس القانون حيث وجد عزاءه في الإشتراكية التي أصبحت دافعه الأول وبيته. كان من الطبيعي أن يصب كل جهوده في عالم لا أهمية فيه للدين أو العقيدة وأحسّ أنه ينتمي إلى حركة ستعيد تشكيل العالم في القرن الجديد، عالماً عادلاً مبنياً على الحق بدون أي تعصب. سادت الإشتراكية في ڤيينا أما في باقي أنحاء النمسا فكانت السلطة الأقوى للمسيحيين الديمقراطيين. كثيراً ما سمع من تلك الحركة شعارات ضد السامية، لكنه لم يرتاب ولم ير أساس

Twitter: @ketab_n

لمثل تلك المخاوف بل ظنّها وسائل واهية للمتاجرة بالأصوات لكن للأسف، لم ير الخطر الوشيك من انبثاق الحركة الوطنية من صميم ڤيينا الإشتراكية الآمنة.

حرص يورغو على التواجد في غرفة باتينا كل يوم جمعة بالذات، أي عند زيارة ماريا التي كانت تصل دائماً في نفس الوقت متأبطة علبة حلوى من محل «ديميل»، أفضل محل للحلويات في ڤيينا وأتت بكل الحلويات التي تحبها أمها. كثيراً ما اتفق معها على الذهاب إلى الأوبرا أو حفلة موسيقية. فقد اعتبرته بمثابة مرافق لها وعندما أعلنت خطوبة إبنتها جينا على طبيب بريطاني لم ينزعج بل بعث لها برسالة تهنئة.

كانت أيامه طويلة وشاقة، وقت الراحة محدوداً للغاية، المسؤوليات عظيمة والويل لمن أخطأ. كان يعد ويعيد عدّ قطع الشاش في نهاية كل عملية، فإن نقصت إحداها وبقيت داخل جسم المريض أودت بحيات الطبيب المهنية كلياً. في أحد الأيام أنهى يورغو إجراء عملية وقام بعدّ قطع الشاش وأعاد عدها مرة تلو الأخرى دون جدوى، فقد اختفت احداها. نظف الجرح جيداً وبحث في كل مكان حتى أصابه الهلع ولكن لحسن الحظ لم ينتبه أحد.

ذهب إلى غرفته يائساً، فقد انتهى كل شي. أيقوم بحزم أمتعته؟ أيعود إلى قبرص؟ يا للعار الذي أصابه. خلع حذاءه، وسقطت قطعة الشاش على الأرض. في مثل تلك اللحظات الصعبة تبدو الأمسية مع ماريا كنسمة هواء منعشة. فارتدى أحسن ثيابه، تعطّر بالعطر الايطالي الذي أهداه إياه أحد المرضى ودق جرس الباب. وللحظة تجرأ

Twitter: @ketab_n

وسأل نفسه: «يا ترى هل وقعت في غرامي؟»، لكنه طرد الفكرة من رأسه بسرعة. «عار عليّ حتى أن أفكر في ذلك، فإنها إمرأة متزوجة، محترمة وأكبر مني سناً، ستكون فضيحة كبيرة لو اكتشفوا ذلك في المستشفى». فتحت الخادمة ستراففكا الباب وقطعت حبل أفكاره.

أحيانا يتناولان العشاء في بيتها واحيانا أخرى يذهبان إلى مطعم ما متحاشين الأحياء اليهودية حيث كانوا يعرفونها، لكن ڤيينا مدينة كبيرة ومن السهل على المرء أن يبقى مجهولاً. سألها عن أمها وعن أبيها. عاشت ماريا في أماكن عديدة معهما، فصول الشتاء مع الثلج والمزالج في «ريغا» وفصول الصيف في مزرعة بين الأشجار والأزهار على أطراف مدينة وارسو. حدثته عن الشتاء في سانت بيترسبورغ حيث كان يأخذها أبوها لتركب المزلجة على نهر نيفا المتجمد كما حدثته عن الصيف بلياليه البيضاء هناك حيث كان الأطفال يأوون إلى فراشهم متأخرين، الأمر المحرم في بيتهم، لكن الشمس هنا تبقى في منتصف السماء لساعات طويلة فكيف للأولاد أن يذهبوا إلى فراشهم في وضح النهار؟ رغم صغر سن ماريا، إلا أنها احست بالصمت الطويل السائد بين أمها وأبيها، فطال غياب أبيها عن البيت وكثيراً ما رأت أمها تجلس لساعات وساعات بقرب النافذة تحدق بالسفن على نهر نيفا وثم تعود إلى ڤيينا، للعبة البريدج والصداع. كان أصلهم اليهودي مسألة لا تقدم ولا تؤخر في ذلك البيت وخصوصاً بالنسبة لفرانز الذي تحاشى كل الطقوس اليهودية رغم أنه لم يعتنق المسيحية كما فعل بعض يهود ڤيينا لمجرد تحاشي المصاعب التي جلبتها لهم ديانتهم. كره فرانز اليهودية كل الكره ودام على شجار مع أبيه بسبب ذلك فقد كان فرانز ملحداً، دينه الوحيد هو الإشتراكية التي وعدته بحياة أفضل بعيداً عن كل تحيز.

Twitter: @ketab_n

في شهر مارس من عام ١٩٣١ حصل يورغو على الشهادة وكان أول أهدافه التقديم على مركز مساعد جراح في وحدة العمليات بمستشفى «رودولفستيفتنغ» التي يديرها الأستاذ فون أيزلبرغ. كان الأمل بقبوله ضعيفاً لكنه تمنى أن يدرك أستاذه الذي أحبه واحترمه مدى شغفه ورغبته بهذا المركز. استمر الإمتحان يوماً كاملاً، أجرى عمليات على الجثث طوال اليوم تحت عيون المساعدين والمحاضرين المتفرسة وفي النهاية وبمعجزة، قُبل وشغل آخر مركز شاغر لمساعد جديد في العيادة فلم يعين أي عضو جديد فيها منذ سنين طويلة. اقترب الأستاذ فون أيزلبرغ من التقاعد وقريباً ما سيترك العيادة لرانزي، خليفته الإيطالي ولربما كان هذا سبب قبول يورغو الذي لم يثق في حظه.

ابتدأ عمله في الساعة السادسة صباحاً ولم يكن يورغو ليكره شيئا في ڤيينا أكثر من الإستيقاظ في الصباح الباكر والسماء مظلمة. عملوا يومياً بدون توقف إلى أن اطفأ الأستاذ ضوء مكتبه، وكان ذلك عادةً في الثانية عشر منتصف الليل. كثيراً ما جال الأستاذ الردهات ليلاً وما أن يرى أحدهم نائماً أثناء دوامه طرده في الحال. كانوا ستة وعشرين مساعداً في ذلك الوقت، أكبرهم برايتنر الذي كان في الخمسين من عمره، وفي الصباح وقفوا جميعا صامتين لا يتكلم إلا أقدم المساعدين أما الباقين فاقتصر كلامهم على: «نعم يا فخامة المستشار». هنا وفي هذه العيادة تعلّم يورغو الإنضباط، العمل بإجتهاد والدقة التامة.

دعى الأستاذ كل مساعديه إلى بيته مساء أول يوم إثنين من كل شهر فالتقوا على الناصية المقابلة ورنّ أكبرهم جرس الباب في

Twitter: @ketab_n

اللحظة التي تدق ساعة البلدية الثامنة تماما، ضربوا كعبي أحذيتهم بعضاً ببعض وانحنوا عند الدخول، قبّلوا يد زوجة فخامة المستشار وبناته الأربع اللواتي تراوحت أعمارهن ما بين الخامسة عشر والعشرين. بعد تناول العشاء أخذوا دورهم في الرقص مع بنات المستشار وهنا حذر برايتنر يورغو قائلاً: «تحكم في طباع أهل البحر المتوسط لديك وأرقص بالتزام. لا ترقص مع نفس البنت مرتين وإلا فقدت وظيفتك على الفور، فلن تكون هذه المرة الأولى».

كان برايتنر رجلاً مثيراً للفضول وتبع يورغو نصائحه بلا نقاش. في عام ١٩١٤ عندما نشبت الحرب اكتشف برايتنر أن إسمه لم يكن على لائحة المطلوبين للتجنيد فاعترض وذهب بنفسه إلى الوزارة ولكن بعد فوات الأوان، فقد تم إرسال جميع اللوائح وما كان منه إلا أن ذهب إلى جبهة القتال وتطوع. إتخذوه سجيناً حربياً في بولندا ثم أرسلوه إلى سيبيريا حيث سبقه آلاف السجناء والمصابين، هناك وبفضل خبرته أصبح رئيساً للأطباء ومن ثم مستشاراً للجيش الروسي الإمبريالى في سيبيريا. بعد ثورة أكتوبر اتخذ على عاتقه نقل جميع السجناء الألمان والنمساويين من سيبيريا إلى بلادهم ورغم مطاردة البلاشفة لهم استطاع أن يتم تلك المهمة الصعبة بمساعدة زملائه إلى أن وصلوا إلى «مانزوريا» مصطحبين معهم كل السجناء فأطلقوا عليه اسم «ملاك سيبيريا». تقديراً لجهوده وضعت الحكومة اليابانية سفينة حربية تحت تصرفه لينقل السجناء إلى ترييست وكانت الرحلة من ترييست إلى ڤيينا بمثابة إنتصارٍ ساحقٍ فاصطف النمساويون على جانبي سكة الحديد ليرحبوا بملاك سيبيريا.

Twitter: @ketab_n

عاد إلى المستشفى وفي الحال رشح نفسه لرئاسة جمهورية النمسا الجديدة لكنه خسر الإنتخابات. نشر تجاربه في سيبيريا في كتابٍ عنوانه «سجين بلا جروح»، عمل كممثل، كتب نصوص مسرحية للأوبرا والمسرح، أصبح بليغاً يسرد مغامراته ونوادره مساءً بلغة رائعة وأنيقة، خففت وطأة الجو الثقيل الذي ساد العيادة.

كان التخدير في ذاك الوقت يتم من خلال قناع مفتوح يمررون فيه الغاز مصحوباً أحياناً ببعض الكلوروفورم وأثناء إجراء العمليات تمتلئ الغرفة بالأبخرة والغازات لدرجة أن الأطباء أنفسهم يحسون بالدوار عند انتهاء العمليات في منتصف النهار. كانو يستمرون باجراء العمليات من الساعة السابعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر ثم يبدأون ثانيةً في الخامسة مساءً حيث كان يباشر القسم بإجراء العمليات الطارئة مرتين بالأسبوع.

منذ أن انتقل إلى العيادة الأخرى لم يعد يورغو يرَ السيدة زيلر بكثرة، لكنه تعمد أن يزورها كلما استطاع ولم تتوقف عن شكواها له. فبعد أن تعودت على إهتمامه الفائق بها فمن بعده لم يستطع أي طبيب آخر أن يرضيها أبدا. ماريا كانت غائبة أيضاً، فقد ذهبت إلى لندن لزيارة إبنتها وغيابها هذا جعله يدرك مدى تعلقه بها وعندما استلم بطاقة بريدية تقول: «ليتك هنا،» وجد نفسه يحملق بالبطاقة طويلاً، لمرات عدة.

ساءت الحالة السياسية وأثبت كلا الإشتراكيين والوطنيين وجودهم بطريقة أو بأخرى. في إحدى الليالي وهو خارج من المستشفى وجد يورغو نفسه محاطاً بعصابة من الشباب على

Twitter: @ketab_n

وجوههم رسوم غريبة يسألون إسمه وديانته. «لا تصدقوه» صرخ أحدهم وهنا شعر يورغو بأول لكمة. «توقفوا» صرخ آخر، أنا أعرفه فقد كان مساعداً في عيادة شفوستك وهي عيادة غير يهودية». تراجع الشباب واصطفوا بنظام هاتفيين «هايل هتلر!» هزت هذه الحادثة يورغو بعنف وأدرك ساعتها أنه لن يستطيع التحمل أكثر فلعل الوقت قد حان لأن يعود إلى بلده، هذا بالإضافة إلى رسائل أمه المليئة بالمرارة والأسى لغيابه ثماني سنوات. للأسف لم تكن ماريا موجودة معه فكم ود لو أمكنه التحدث معها بهذا الموضوع. فقد داوم يورغو في العيادة ما يقارب السنة، شعر خلالها بالثقة والتقدم في قدراته الجراحية ورغم أنه جاهد للحصول على هذه الوظيفة إلا أنه وجد نفسه وبعد مرور عام من العمل المرهق محتاجاً إلى فترة من الراحة. فجأة وبدون تفسير غمره شعور بالحنين لوطنه.

في اليوم التالي اشترى تذكرة واستقل القطار إلى ترييست ومنها أخذ قارباً إلى فاماغوستا.

عند وصول رسالته إلى فاماغوستا كان جو البيت يعمه التوتر، فكانت أمه كرستاليني على خلاف مع زوجها المعلم نيكوليس بسبب تبرع المعلم نيكوليس للمدرسة الجديدة. فقد أوصى على لافتة لتوضع على مدخل المكتبة التي شيدها تقول «بتبرع من نيكوليس»، الشيء الذي أغضب الأم عند رؤيتها فصرخت: «وماذا تعني بكتابة نيكوليس فقط، كان الأوجب أن تضع إسمينا معاً». لكن جاء إعتراضها متأخراً وعند الإفتتاح فضل المعلم المغامرة بمواجهة غضبها عن المخاطرة باستهزاء أبناء بلدته وقولهم أنه يخاف زوجته. إنما حقاً لم يتوقع أن تكون ردة فعلها بهذه القوة فوجدها ترفض أن تصنع له القهوة أو

Twitter: @ketab_n

تقدم له الحلويات في العصر وفي الليل أدارت له ظهرها.

كانت كرستاليني من عائلة سوتيريو وحفيدة السيدة حاجي تالورو الشهيرة، إبنة الكابتن بانايس أنجيلاتوس الذي جاء إلى قبرص من سيفالونيا. كان بيت السيدة حاجي تالورو وراء كنيسة سان نيكولاس وكان محمياً من السلطة لأن حاجي تالورو كانت بريطانية الجنسية. لجأ الكثيرين لهذا البيت في العهد العثماني ولقبها أهل البلدة بالقنصلة وأحيانا بالمرأة الإنجليزية فكان وقوف هذه المرأة القصيرة الممتلئة القامة على مدخل بيتها ويديها على خاصرتيها كافياً لصدّ الجيش التركي بأكمله ومنعه من الدخول.
حاجي تالورو كانت أول قبرصية تحصل على الطلاق من المطران وكان من الواضح أن كرستاليني ورثت بعض خصال وطاقة جدتها.

بددت رسالة يورغو كل الغيوم ونسيا الموضوع وبدأت التحضيرات. دهن البيت، لمعت الفضيات، غسلت البرادي وبات الجميع ينتظرون النمساوي. وعنت عودة يورغو معاني مختلفة لكل شخص في البيت، فلأخواته البنات عنت التخلص من الإستبداد، والأخ كان بإنتظار صديقه الحميم ووليفه، أما كرستاليني فبدأت تخطط لإيجاد زوجة المستقبل لإبنها وبدأ المعلم نيكوليس برسم خرائط العيادة، حساب تكاليف ما يلزم من الأخشاب والحديد والتفاوض على الأرض المناسبة للمشروع. الأولى بعيدة عن وسط البلد والثانية في حيّ سيئ فلم يستطع أن يقرر.

كان وصول يورغو يُنبئ بمستقبل عظيم للجميع، بدأت كرستاليني تحلم بالأحفاد حتى قبل أن تختار زوجة لإبنها ودأبت تجادل المعلم

Twitter: @ketab_n

نيكولس حول استدعاء خادمة إضافية لتساعدها في أعمال البيت التي ستتزايد. بعدما تفحصت المرشحات من حولها قررت أن أناستاسيا ستافريديس ملكت أعظم الميزات حانة في البلدة، أصل صلب، جميلة وييتوتية في طبعها، من المستحيل أن يتطلب يورغو أكثر من ذلك. وفجأة قررت أنه قد آن الأوان لتجدد العائلتان صداقتهما فقامت بزيارة أم أناستاسيا. فهمت الأم مغزى الزيارة في الحال وتساءلت، إن كانت تستطيع أن تجد أحسن منه زوجاً لإبنتها؟ كان طبيباً وميسور الحال فقررتا ألا تفصحان بشيء لأناستاسيا. «أولاد هذه الأيام»، تنهدت كرستاليني وتساءلت كيف ستتمكن من التخطيط لكل ذلك بحذر.

مر يورغو في طريقه إلى فاماغوستا في صيف من عام ١٩٣٢ خلال سهل لارنكا الجاف وأحسّ بإحساس شنيع وأوشك على البكاء. حرارة الظهيرة خانقة ولم يعد قادراً على التنفس، الذباب مزعج. لا يربطه شيئ بهذا المكان البائس إلا القليل وبدأ يشعر بحنين قوي إلى الأنهار والوديان الخضراء في النمسا، إلى ڤيينا نفسها والحياة التي عاشها هناك. عندما لاحظت إبنها دامع العينين مكتئباً قالت كرستاليني لنفسها: «إنها دموع الفرح لعودته إلى بلده».

تجمع كل الأقارب والعائلة في غرفة الجلوس ولاحظ يورغو فجأة وراء المقعد حيث جلس جده وجدته لوحة مطرّزة محاطة بإطارعليها كلمة «أهلاً وسهلاً». أخواته أصبحن فتيات ناضجات، جميلات أنيقات، يتحينّ الفرصة لأخذه جانباً لتسردن له قصصهن. لم تسنح الفرصة لأحد للتحدث من كثرة الضجة فالجميع يتكلم في آن واحد. قابله على مدخل فاماغوستا صديقه الحميم جلال الدين أفندي، عضو مجلس الهيئة التشريعية، محاطاً بأتراك الحي القديم

Twitter: @ketab_n

وطبولهم ومزاميرهم، أخذ يورغو بالحضن وبدأ يتكلم بدون توقف عن أمور تافهة لا تهمه، تبعوهم الأتراك إلى البيت حيث قدمت لهم كرستاليني حلويات اللوز وشراب الليمون. امتلأت غرفة الجلوس والحديقة، دخلت نساء عدة وخرجن محملات بصواني مملوءة بالحلوى. انشغل يورغو بالتعرف على أطفال العائلة الذين ولدوا في غيابه والتعرف من جديد على أصدقاء قدامى بعد غياب دام ثماني سنوات. حاول شاب لا يعرفه أن يشد إنتباهه وبالكاد ميز أنه إبن عمه فانوس الذي لم يكن سوى ولدٍ صغير لا أكثر عندما تركه، أمّا الآن فاصبح شاباً مشحوناً بأسئلة لا أول لها ولا آخر عن الطب الذي يريد أن يدرسه ويمارسه. العمة جوليا طبعت قبلتين على خدي يورغو أعادتاه إلى زمن بعيد مضى حين كانت تأتي كل يوم سبت ومعها مجلة «ملخص أدب الأطفال» التي نشرت قصص كتبتها تحت اسم «الراعية السعيدة»، موهبة فنية ورثها الإبن الذي بدأ يلقي قصيدة كتبها بمناسبة عودة يورغو...

من قيينا دعونا نحييه

مليء بالعلم

مليء بالفخر،

محملا بالعلاج،

بالأمل،

بالنور

عند كلمة «النور» تلعثم وخرج مسرعاً يبحث عن أوراقه لأنه نسي بقية الشعر.

أعلن المعلم نيكوليس عند اقتراب ساعة المغرب بحماس: «حان الآن وقت المفاجأة»، وأشعل الضوء بالمفتاح الكهربائي وانغمرت

Twitter: @ketab_n

غرفة الجلوس بالأضواء التي انبعثت من الثريا. هنا تذكر يورغو أنه عندما ترك الجزيرة لم يكن هناك كهرباء. وأضاف أبوه بفخر: «لقد تغير الكثير في بلدتنا منذ رحيلك، وسترى ذلك بنفسك قريباً».

زار جلال الدين أفندي ڤيينا منذ سنتين في حالة مزرية يعاني من أعراض مرض الإنفصام وحالة شلل متقدمة. عالجه الأستاذ الفييني واغنر فاورغ الحاصل على جائزة نوبل في الطب لعلاج الفصام وتحسنت حالته مؤقتاً على الأقل ولكن سلوكه ساء مؤخراً فاعتبر أهله وصول يورغو إلى فاماغوستا هو الحل لعلّته. في اليوم التالي وصلت العربة ونقلت يورغو إلى بيت الأفندي، فحصه وتأكد من التشخيص. لحسن حظه وجد مريضاً مصاباً بالملاريا فسحب منه دماً وحقن به جلال الدين أفندي، وكما توقع يورغو ظهرت في الحال أعراض مرض الملاريا المزمن عليه فارتفعت حرارته إلى الأربعين درجة وأسرعت النساء تغطيه بكمادات مبللة بالماء البارد تحاولن تخفيض حرارته تحت وطأة حرارة الصيف الهائلة. أعار الأفندي سيارته الفورد المكشوفة ليورغو ليستطيع أن يزوره يومياً وذهب يورغو إلى الحي القديم عدة مرات يومياً ليتابع حالة الأفندي.

انقسم أهل البلدة إلى قسمين. قال بعضهم أنه أحمق، فمن ذا الذي سمع بمثل هذا العلاج للجنون من قبل، لا بد أنه يقوم بكل هذا فقط ليسلب أموال المريض اليائس. أما ألاخرين فقالوا لا بد لهذا الطبيب الذي درس في ڤيينا كل هذه السنين أن يعرف شيئاً لا يعرفوه وانتظر الجميع ليروا النتيجة. كانت كريستالين الأكثر قلقاً، فرغم أنها كانت تشك في وجود أي علاج لجنون الأفندي إلا أنها آمنت كل الإيمان بقدرات إبنها. لكن قلقها الحقيقي كان على الترتيبات مع أناستاسيا

Twitter: @ketab_n

وفرصة زواجه منها. بعد زيارة مريضه مشى في زقاقات المدينة القديمة والكنائس. راقب السحالي تزحف على الأحجار الساخنة تحت حرارة الصيف وهو يأخذ غُطساً سريعاً في البحر. مشى تحت الشمس المحرقة طويلاً وبدون أي نوع من الوقاية فاضطرت كرستاليني أن تفرك ظهره المحروق باللبن ليستطيع أن ينام ليلاً.

تحولت غرفة نوم يورغو الأصلية إلى غرفة نوم للضيوف فتلاشى وضاع شعوره بدفء البيت. وعندما قام يوماً من النوم مبكراً للذهاب إلى نيقوسيا مع أبيه ليقوم بالتسجيل كطبيب ممارس، لم يجد بنطاله، فتش في كل مكان لكن لم يجد له أثراً فاضطر إلى ارتداء أحد البناطيل التي اشتراها له أبوه. في ڤيينا كان يرتدي البناطيل الواسعة التشارلستون، لكنهم اختفوا كلهم بغموض مماثل للغموض الذي أحاط احتراق الصندوق الكبير الذي احتوى على كل تذكاراته وصوره من أيام ڤيينا. وجد المعلم نيكوليس صوراً ورسائل من صديقة له راقصة في أوبرا ڤيينا فقرر أنه من الأفضل أن يتخلص من كل تلك الأشياء بما فيهم بحثين جاهزين للنشر تحولا أيضا إلى رماد ودخان. فقد يورغو اعصابه لكنه قرر الصمت. لم يكتف المعلم بكل هذا بل تمادى بالترتيب مع أحد الأقارب، الدكتور ياسونيدس بأن يذهب في إجازة حتى يحل محله يورغو في العيادة ويبدأ بممارسة الطب، نجحت الخطة فوجد الفييني نفسه يفحص المرضى طوال اليوم ويصف لهم الكينين.

بدأت درجة حرارة جلال الدين أفندي تنخفض، وأعطاه يورغو الكينين فتعافى بعد بضعة أيام لأن بنيته الجسمية كانت قوية. جاء تقريباً كل ليلة في سيارته المكشوفة وأخذ يورغو إلى الحانات حيث كان محبوباً بين أصحابها لأنه استثناهم من بعض القوانين التي

Twitter: @ketab_n

وضعها البريطانيين بخصوص عصافير التين وهي طيور صغيرة مهاجرة تمر بالآلاف من فوق قبرص خلال فصل الخريف وتُصطاد بواسطة عصي دبقة وتعتبر من الملذات. رأى البريطانيون أن طريقة الصيد هذه همجية رغم أن منعها سيؤدي إلى إنعدام مدخول الكثير من العائلات في المنطقة الذين كان الصيد مصدر عيشهم الوحيد. وحضر البريطانيين مخطط تمهيدي لإصدار قانون بمنعها. كان رؤساء القسم البريطانيين وأعضاء المجلس التشريعي الأتراك متساوين في الأصوات مع الأعضاء اليونانيين لكن صوت الحاكم البريطاني كان الحاسم في هذا الإقتراع المثير للجدل وكان هناك خطر حقيقي بصدور هذا القانون حيث اعتاد الأتراك التصويت مع البريطانيين.

يوم الإقتراع، دعى الأعضاء اليونانيين القبارصة جلال الدين أفندي على غداء من عصافير التين والنبيذ فوصل الأفندي إلى المجلس التشريعي بمزاج مرح، ووقف وقال: «أنتم لحم خنزير مقدد بريطاني ونحن عصافير تين قبرصية، أنا شخصياً اصوت ضد المخطط التمهيدي». وهكذا وبكل بساطة ألغي إصدار القانون واعتبره أصحاب الحانات بطلاً أنقذهم من البريطانيين. أما يورغو فلم يستطع أن يشاركهم اندفاعهم نحو مثل تلك الأمور فروحه كانت تبحث عن أمور اخرى.

شعر بالاختناق في هذه البلدة الصغيرة، فالحديث في البيت ممل والمرضى غير مثيرين للإهتمام. كانت الروحانية موضة اليوم حيث يجلس متبعيها حول منضدة بثلاثة أرجل غير مسمّرين، يمدّون أيديهم حتى تتلامس أصابعهم ويحضّرون الأرواح، أفزعت

Twitter: @ketab_n

تلك القصص يورغو. أهم موضوع والأكثر إثارة كان إنشاء ماريا يوانيو لمدرسة للبنات، ولكن عندما دعاه الناس مركزاً للفساد، مخل بالأدب وبلا فائدة، شعر يورغو بيأس فظيع. تناقش الرجال بأمور السياسة، الإنتفاضة ضد الحكومة الإستعمارية التي قامت في العام الماضي ما زالت عالقة في أذهان الجميع والحاكم ستورز فرض سلسلة من المقاييس فُصِّلت لتأمين عدم حدوث أي عصيان مسلّح آخر في المستقبل. وجد القبارصة اليونان أنفسهم مبعدين عن المناصب الحكومية وشجب فنيزيلوس في اليونان إنتفاضة أكتوبر ضد الحكومة الإستعمارية قائلاً أن الوقت غير ملائم لمثل هذه الإدعاءات، فقسم رأيه رجال البلد إلى قسمين. الواقعيين المؤيدين لموقف فنيزيلوس والوطنيين المعارضين له.

أثار استغراب يورغو الكثير من الأشياء التي لم يعرها أي اهتمام من قبل، مثل إرتداء رجال الشرطة القبارصة للطرابيش، فكيف للقبارصة أن يحافظوا على مثل هذا الرمز للدولة العثمانية في حين أنهم في تركيا ذاتها تخلوا عنه. كيف له أن يعيش في هذه القرية وهو لا يرى أمام عينيه سوى دار الأوبرا في ڤيينا، أبحاثه الجامعية وتلك الأمسيات المتلألئة في بيت ماريا؟

جلب يورغو معه من ڤيينا شالاً أسود جميلاً لعمته ميروبي التي فقدت زوجها مؤخراً. ميروبي كانت عمته المفضلة وكانت دوماً إمرأة ذات عقلية مختلفة عن الباقين ولديها منطقاً خاصاً بها. تقدمت في العمر ولم تعد تخرج من بيتها، فذهب يورغو لزيارتها ووجدها جالسة تحت شجرة في حديقتها، عرفته على الفور رغم ضعف بصرها وقالت مرحبة: «عزيزي يورغو، أهلاً». جلس بقربها

Twitter: @ketab_n

وأمسك بيديها المجعدتين المغطاتين بالنمش وقال بحنان صادق: «آلمني جداً سماع خبر موت عمي» فأجابت: «لا تقلق يا عزيزي فهو يزورني دوماً لكنه لا يكلمني، لقد رأيته هذا الصباح، أتى نحوي مرتدياً بذلته البيضاء وممسكاً بعصاه. ماذا أفعل ياعزيزي؟ أشعر بالقرب من الموتى أكثر من الاحياء. ألا تذكر عندما كنت أقول لك أنني كنت أرى أبي بعد مماته أيضاً»؟.

«كان عمي رجلاً صعباً أليس كذلك؟ لقد كانت حياتك معه صعبة».

«في بداية حياتنا الزوجية، كنت أصحو وأطهو ما يصطاده. أو أي شيء من الطعام الشهي. فالحانات في تلك الأيام قدمت الشراب فقط. لذا عندما ارتادها مع أصدقائه أخذوا طعامهم معهم. قليت لهم كل من الأرنب والبصل والكبد على حدة، وضعتهم في صحون عميقة، غطيت كل منهم بصحن وربطت حولهم منديلاً ثم وضعت الصحون في سلة دراجته وكان ينطلق كل ليلة مع صديقه زخرياس والموسيقيين الذين يعزفون لهم. عند عودته أكون مستغرقة في النوم وفي الصباح أجد السلة وبها الصحون المستعملة القذرة. أتصدق عزيزي يورغو انه لم يخطر ابداً ببالى أن ذلك التصرف غير لائق وحتى الآن في هذه اللحظة أشعر بالذنب وأنا أخبرك كل هذا وكأنني أرتكب حماقة. قل لي، كيف حالك»؟ حكى لها يورغو عن ڤيينا بالتفصيل، كيف كانت وكيف يشعر تجاهها الآن.

«عد يا إبني، عد إليها!» قالت ميروبي: «إن وقت عودتك إلى هنا لم يحن بعد».

«لكن قولي لي يا عمتي، كيف تقضين أيامك؟»

«ماذا أقول لك يا يورغو، إنني أقضي أيامي أتذكر الماضي وأيامه. هل تذكر عندما كنت طفلاً وتطلب مني أن أحكي لك القصص؟ أشياء

Twitter: @ketab_n

قديمة كثيرة مثل هذه تتسلل إلى ذاكرتي باستمرار وكأن الماضي أصبح الحاضر والحاضر لا معنى له، أظن أن هذا سبب نسياني لكل شيء دائماً. أما بالنسبة لك أنت، فميعاد رجوعك لم يحن بعد».

هنا اقترب منها يورغو وهمس: «أتستطيعين أن تحكي لي إحدى الحكايات التي كنتِ تقصينها علي وأنا صغير»؟ وبدأت تقصّ عليه حكايته المفضلة «طير أولفر».

في أحد الأيام وهو يتمشى في البلدة القديمة بعد زيارة جلال الدين أفندي دخل كنيسة القديس جورج المنفي وأضاء شمعة «لتعينني على الخروج من هنا»، فكرة كتمها في نفسه ولم يجرؤ على البوح بها. كانت هذه أحب الكنائس إليه، مهجورة في الحي التركي وكانت تستخدم كإسطبل وهو صغير. بدأ يشرف على تنظيفها ميخالاكيس لويزيدس بإذن خاص من السلطة التركية وأقيمت الصلوات فيها من آن إلى آخر. في عام ١٩٢٢ جاء الكثير من اللاجئين من آسيا الصغرى إلى فاماغوستا ومن بينهم الأب مانياس الذي أخذ على عاتقه الإعتناء بالكنيسة وعند حلول أول عيد فصح، اقترح الأب مانياس أن يبدأ الموكب الجنائزي من الكنيسة وعارض الكثير خوفاً من انتقام الأتراك فما زالت جروح حرب ١٩٢٢ مع تركيا مفتوحة وخشي اليونانيون من الإنتقام. طمأنهم الأب مانياس، ابتدأ الموكب، ولحظة ما اقتربوا من المقهى التركي ألقى عليهم بلهجة تركية بليغة، دعاءً لسلام وأمن الجالية التركية وإمامهم ومنذ ذالك اليوم بدأ اليونانيين بزيارة الكنيسة والصلاة فيها بصورة دائمة.

اشترى المعلم نيكوليس قطعة أرض في وسط البلد، اشتراها بسعر باهظ بسبب استعجاله في البناء مما لم يعطه متسعاً من الوقت

Twitter: @ketab_n

للمساومة. أنجز تقدماً ملحوظاً في رسم خرائط العيادة التي أضاف إليها بيتاً ليورغو وعاد كل ليلة وفردها على الطاولة الكبيرة بفخر سائلاً يورغو عن تفاصيل مثل حجم غرفة العمليات وموقع أنابيب الماء الخ... أما يورغو فأجاب على كل أسئلة المعلم بدون أي حماس وكأن الأمر لا يعنيه ولا يخصه. ظل يفكر بأبحاثه، بالأوبرا، بفرانز نادل المقهى الذي يتخيله يقول: «ها قد عاد الدكتور إلى بلده». كيف له أن يعتاد على أنه سيكون مجرد طبيب قروي ريفي بسيط في فاماغوستا يصف الكينين للمرضى. مرت الأيام وجاء الصيف، ارتفعت الحرارة فكان عزاءه الوحيد هو البحر والكوخ الصغير الذي بناه المعلم نيكوليس على الرمال. قبل أن يرحل إلى ڤيينا امتلأ الشاطئ بالأكواخ الخشبية التي بنيت على أعمدة معدنية حيث استحمت النساء أما الآن فقد أصبحت الشواطيء مهجورة ولم يبق سوى بعض الأعمدة المعدنية في أماكن متفرقة تصدأ في الماء. كانت الرمال دافئة والبحر صافي كالبلّور ولو قرر يوماً ما أن يبقى في فاماغوستا فسيبنى بيتاً على البحر، هكذا على الأقل سيصحو كل يوم ويسبح.

أخذه المعلم نيكوليس يوماً على حدة وقال: «إسمعني جيداً، أنا لم أبعث بك إلى الخارج لتصبح أستاذاً بالطب بل أرسلتك لتصبح طبيباً وتعود إلى بلدك». قبل البدء ببناء العيادة أصر المعلم نيكوليس بأن يذبح ديكاً، يقيم وليمة و يدعو المقاول. وضع وردة في عروة سترته وشع وجهه بالبهجة والفخر، حتى كرستاليني لبست أجمل ما تملك من ثياب وحلي ذهبية وجالت بكامل زينتها في البيت تصدر الأوامر للخدم وهم يعدون الوليمة. دعت أناستاسيا وأهلها وتأكدت من أن تجلسها بجانب يورغو الذي تفاجأ حين رأى إمرأة انيقة وحسنة

Twitter: @ketab_n

الهندام بجانبه بينما كل ما يذكره عنها وهي صغيرة أنها كانت كثيرة البكاء. اكتشفوا أن الموسيقى كانت موضوع مشترك بينهما، فتحدثوا طويلاً وكرستاليني تراقبهم بسعادة. لكن سعادتها لم تدم طويلاً فبعد ظهر اليوم التالي استوقف ساعي البريد يورغو وسلمه برقية وهو خارج في طريقه إلى العيادة ولو وقعت هذه البرقية بيد المعلم نيكوليس لاختلف قدر يورغو تماماً. كانت البرقية من برايتنر صديقه وزميله في عيادة فون ازيلزبرغ، يخبره أنه قد عُين أستاذ دائماً للجراحة في «أينزبروك» وسيستلم المنصب يوم الخامس عشر من سبتمبر. وحيث كان من المعتاد عند استلام أحدهم منصباً ما أن يصطحب معه زملاؤه الموثوق بهم، فأخذ هوش كمساعدٍ له وأراد أن يضم يورغو أيضاً. بدون أي تأخير اسرع يورغو إلى مكتب البريد وبعث ببرقية إلى برايتنر تقول: «مبروك سأصل على أول سفينة».

انتظر ذاك المساء إلى أن انتهت العائلة من تناول العشاء وأجهر برحيله. جلس أبوه على مقعد ومن ورائه ظهر طرف اللوحة المطرزة بـ«أهلاً وسهلاً». شعر يورغو في هذه اللحظة وكأنه قد رحل منذ زمن بعيد، بعيد جداً. أصيب المعلم نيكوليس الذي دخل للتو بلفافة جديدة من الخرائط المعمارية، بسكتة قلبية تقريباً، صمت لوهلة ثم قال: «لن يصلك منا أية معونة مالية ولن تبقى لنا أية صلة بك». أغلقت كرستاليني باب حجرتها وبكت بصمت واستحال عزاء أختيه. في اليوم التالي زار يورغو كل مرضاه لجمع مستحقاته ووجد جلال الدين أفندي في حديقته يقطف الزهور وقال مرحبا: «طبيبي العزيز، أحضروا له القهوة والحلوى». جلسا تحت القنطرة وقال له يورغو:

«يا أفندي، أنا بحاجة إلى النقود، أبمقدورك أن تدفع لي الحساب»؟ غمره الأفندي قائلاً: «حياتي، أموالي، ممتلكاتي، كلها لك». لكن

Twitter: @ketab_n

عندما طلب منه يورغو ٧٥ جنيهاً إنقلب الأفندي وأصبح شرساً وعدوانياً يصرخ ويلعن يورغو وطرده من بيته. قال يورغو في سره: «إن حالته حقا تتدهور ولكن هذا التصرف ناجمٌ عن بخله لا أكثر».

في صباح اليوم التالي بعث الأفندي ليورغو بأربعين جنيهاً وهو بالكاد ما يكفي لشراء التذكرة. رحل يورغو وحيداً لا يودعه أحدٌ إلا أخاه الذي رافقه إلى السفينة.

كلما ابتعدت السفينة عن الجزيرة تأكد يورغو من صحة قراره أكثر فأكثر ولم يشعر بتأنيب الضمير البتة بل انزعج من موقف والديه. «ربما أعود يوماً ما، ولكن من المستحيل أن أبقى هنا الآن».

إنه لشرف عظيم أن يختاره بريتنر، كان يثق به ويحترمه وطالما فكر بأحاديثه وقصصه. حكى له مرة كيف عاد من سيبيريا واستقبلوه استقبال الأبطال، إحتفوا به ودعوه ليلقى المحاضرات في الحفلات والإجتماعات لكن لم يسأله أحد يوماً ما ان كان محتاجاً للمال فمعاشه من العيادة خلال أسره لست سنين لم يتغير وأصبح بلا قيمة بسبب التضخم. لم يملك أية ملابس أو أحذية لدرجة أنه عندما دعاه الأستاذ فوش إلى منزله راعه حاله ووهبه حذاءً وبذلة. يكاد يورغو يسمع صوته الدافيء وهو يسرد قصصه قائلاً: «ولما مر القطار في منتصف فصل الشتاء القارص في نوفمبر خلال المحطات الريفية الصغيرة المملوءة بأطفال يلوحون برايات من ورق لتحيتنا، كل ما تمنيته كان أن أزحف إلى بيتي كالجرو الصغير الضائع وأبدأ عملي ثانية».

نعم، إنه عائدٌ في طريقه إلى أوروبا، نعم، عائدٌ إلى عمل شاق ومتعب لكنه مليء بالتحدي. عائد للمناقشات المليئة بالحيوية، بعيداً

Twitter: @ketab_n

عن العطالة وعن فترات الظهيرة المميتة ببطئها وغيبوبة الحرارة، بعيدًا عن التعصب، وعن المواقف التي تفسد العقل. سيعود إلى حيث يستطيع أن يستخدم ذهنه وحكمته، إلى حيث سيفتح الجريدة ويقرأ مقالات ذكية ومثيرة تبقى معه لأيام عدة.

كره يورغو السفن فدائماً كان يصاب بدوار البحر وتذكر قصة برايتنر حين عين طبيب على باخرة ولم يكن يستطيع أن يقف على قدميه من شدة دوار البحر.

وصل إلى فينيسيا بعد ظهر يوم خريف مشرق، سيغادر القطار إلى «إنزبروك» في اليوم التالي فقضى المساء هائماً في شوارع فينيسيا الضيقة حيث شعر بالحرية وامتلأ بالحماس ولم يعد يقوى على الإنتظار ليبدأ عمله الجديد. ذهب إلى مكتب البريد واتصل بماريا وردت بصوتها العميق: «ألو»! فسرد لها بغبطة أخباره واعداً: «سآتي إلى ڤيينا في عيد الميلاد». وعدها وهام يصعد الجسور، يراقب الناس في المطاعم والشوارع. ارتفعت معنوياته.

أول مرة يزور فيها «إنزبروك»، بلدة جميلة في أعالي جبال الألب محاطة بقمم تغطيها الثلوج، وهي عبارة عن منتجع للتزلج على الثلج لكن الفقر الناتج عن الحرب بدا واضحاً في كل مكان. كانت العيادة قديمة مهلهلة لكنهم وعدوا برايتنر ببناء عيادة جديدة. شرح حالته المادية لبرايتنر ولكن وبالرغم من كل مجهوداته لم يقدر برايتنر أن يؤمّن له معاشاً، أي أن خدماته ستكون مجّانية وحتى السكن لم يتوفر في المستشفى. لكن برايتنر نفسه كان فقيراً معدماً ولم يطلب معاشاً مرتفعاً قط بل كان يوزع النقود القليلة التي يحصل

Twitter: @ketab_n

عليها على المرضى الأكثر حاجة. اتصل برايتنر بمساعده الدكتور سبرنغلر الذي كان من أهالي البلدة، وأمه تملك فندقاً صغيراً، ليؤمن ليورغو وجبات مجانية هناك. ثم وجد يورغو أستاذاً يريد تعلم اللغة اليونانية فاستطاع بذلك أن يكسب بعض النقود ليدفع أجار السكن. شارك يورغو طبيب ألماني في السكن وبذالك أصبح الإيجار نصف ما كان عليه. كان هانز، رفيقه في السكن، طبيباً لطيفاً من بافاريا. ومع مرور الأيام أدرك أن هانز كألوف غيره من الشباب قد ضُلّل على يد الدعاية النازية فكان يصحو كل يوم عند الفجر ويصفر لحن أغنية عسكرية قديمة وهو يرتدي ملابسه بسرعة ويختفي، لم يتأخر يورغو ليدرك أنه كان يذهب إلى التدريب العسكري ومن العجب أن ذلك لم يؤثر قط على وصوله إلى العيادة في الموعد المحدد دائماً. أما تعليقاته عن العِرق المختار والخنازير اليهود بددت أي شك وجعلت الأمور أكثر وضوحاً، الشيء الذي أشعر يورغو بالأسى لأن هانز كان حقاً لطيفاً، لكنه عزم على أن يحفظ المسافة بينهما. كان لبرايتنر علاقات وطيدة مع اليهود ولم يعطِ أحدٌ ممن في العيادة أية اهمية للنازية مع أنهم شعروا بالوطنية تجاه بلدهم وبالفخر بانتمائهم للنمسا إلا أن الحدود بين الوطنية والقومية كانت غير واضحة وتأييد الكثير من الطلبة لهتلر أدت إلى منع الحكومة لكل المظاهرات والمبارزة.

غابت أيام المجد في ڤيينا. فقد كانت «إنزبروك» لا أكثر من بلدة ريفية صغيرة، همّ سكانها الوحيد هو التزلج على الثلج. كان يصل العيادة ما يقارب الخمسة عشر إلى العشرين مصاباً بالكسور كل يوم أحد. اشترى يورغو أدوات التزلج وبدأ يتزلج بحماس إلى أن ضاع يوماً مع زميلٍ له في عاصفة ثلجية وكانا سيلقيا حتفهما لو

Twitter: @ketab_n

لم يجدوهما في الوقت المناسب. وكان هذا آخر تعامله مع التزلج. كانت معظم الحالات في العيادة مجرد كسور أو حالات فتاق شعبي لأنه على علو ألفي متر كانت مادة اليود نادرة، فأصيب الكثير من النمساويين بالفتاق الشعبي.

سلّم برايتنر مسؤولية المحاضرات اليومية ليورغو فبقيا على اتصال دائم وامتلأ المدرج باستمرار حيث كانت المحاضرات تعجّ بطلبة من كل الحقول الجامعية وليس الطب فقط. إهتزّ المدرج بالضحك عندما قلد برايتنر رجلاً ريفياً مصاباً بالبواسير، فمن ذا الذي يستطيع أن ينسى محاضرة كهذه. اشتغل برايتنر كممثل ومنتج في السابق فاكتسب مهارات جعلت محاضراته مفعمة بالحيوية. بعد المحاضرات يبدأ برايتنر جولاته في أجنحة العيادة بسؤال ظريف: «من المريض هنا»؟ يمسك بيد المريض ويستمع إلى مشاكله بانتباه وبحذر دائمين فعشقه الجميع كما أنه من الطبيعي أن تكون له شعبية واسعة عند النساء أيضا.

عندما استلم برايتنر العيادة لم يتخلص من الأطباء القدامى كما هو معتاد بل أبقى عليهم بجانب الأطباء الشباب الجدد مما سبب بعض التوتر في الجو، فمثلاً شعر الدكتور جوست وهو أحد الأطباء القدامى بأنه حُرم من مرضاه ولم يُضيع أية فرصة ليشجب ويشوّه سمعة برايتنر إلى أن جاء يوماً لم يستطع يورغو أن يتمالك أعصابه وهو يستمع إلى إتهامات جوست فردّ عليه مدافعاً عن برايتنر وقامت بينهما معركة، أدت إلى مطالبة الدكتور جوست من جمعية الأطباء بإحالة يورغو وإلا سيستقيل. طالت تلك القضية وسببت الكثير من الأرق ليورغو ولبرايتنر الذي كان يحبه ويبغي إبقائه.

Twitter: @ketab_n

إلتقوا كل ليلة في الحانة حيث قضى برايتنر الأمسية يحكي لهم قصصاً من ماضيه الثري.

«حلمت كثيراً بالهرب والعودة إلى أوروبا واكتشفت يوما أن عشرةً من الضباط خططوا للهرب فأحضرتهم، وكلمتهم: «ستندمون على ما ستفعلون، فلا أحد يترك هذا المكان حياً». قالوا أنهم لا يستطيعوا تحمّل المزيد وسيهربون حتى ولو ماتوا أثناء محاولتهم. وجدنا سبعة منهم مجمّدين في الجليد، ذبح القوقاز إثنين وأعادوا لي العاشر مصاباً بحالة خطيرة من قضمة الصقيع في قدميه، أنفه وأذنيه ولما اضطررت مرغماً أن أقترح بتر رجليه لإنقاذه قال: «أرحم لي أن تعطيني مسدسا يا دكتور فما فائدة الضابط بلا أرجل»؟ ومات بعد البتر بيومين. منذ ذلك اليوم أدخلت إجراءات أمنية مشددة جديدة على المستشفى ولم تعد تُصرف أية أذون بالخروج بتاتاً. ذات القصص المرعبة كل يوم، أكفان مكللة بالزهور البلاستيكية الصينية، تفتيش مستمر للمستشفى وتهديد بتفجيرها إن وجدوا أي شيءٍ مثيرٍ للشك».

تحدث برايتنر لساعات وساعات بدون توقف وتعلّق الجميع بكل كلمة يقولها، قصصه شملت ستّ سنوات من السجن في سيبيريا بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٠، ثورة أكتوبر، الحرب الأهلية في روسيا، الروس البيض والبلشوفيك التشيكيين، اليابانيين والصينيين، تنظيم المستشفى في «نيكولسكي»، ألف ومائتي مريض تحت عنايته اليومية، جمعية الصليب الأحمر التي زودتهم بآلات الهارمونيكا في حين كانوا بأشد الحاجة للأدوية الأساسية، الكمين والهجوم من قبل الجيش الأحمر، الجوع، البرد، التيفوئيد الذي حصد رجالاً أقوياء

Twitter: @ketab_n

طولهم مترين، الجنازات اليومية، اليابانيين والصينيين الذين أرادوه أن يجري العمليات على جرحاهم، والشيوعيين أيضاً الذين استدعوه في الحالات العسيرة والعمليات الصعبة. خمسة أعياد ميلاد في المعتقل، الأشجار المزينة، العروض الغنائية التي أدّوها المعتقلين، الوحدة، العروض المسرحية اليابانية.

كان اليابانيون الأكثر تمدّناً وكثيراً ما حاولوا أن يمدوا يد العون. منذ عام ١٩١٨ تكثف عدد المعتقلين الألمان، النمساويين، الهنغاريين، والأتراك في سيبيريا ووضع الحلف علاج جميع المرضى وكل الأمور الصحية تحت توجيهات برايتنر. وحين جاء خبر توقيع معاهدة السلام في شهر نوفمبر من عام ١٩١٨ شحنوا أول مجموعة من المعتقلين إلى أوروبا. رفض برايتنر الخروج من سيبيريا إلى أن خرج آخر معتقل وتكرر تأجيل خطط العودة باستمرار ودامت الرحلات المتصلة بين «فلاديفوستوك» والمستشفى في «نيكولسكي» للاستشارات الطبية ومر عامان من المجهودات والمحاولات المتكررة للعودة حتى أنه شعر أحياناً وكأنها لن تتحقق ابداً.

وأخيراً جاء اليوم الموعود واستقل السفينة الحربية اليابانية ناكاي مارو في خريف عام ١٩٢٠، بذل مجهوداً عظيماً لتنظيم كل شيء، تفاصيل لا نهاية لها، من المراحيض إلى كميات سمك السردين وحبات البطاطا التي تلفت، تقسيم العمل، من سيقوم بالغسيل والتنظيف ثم أبحروا مروراً بشانغهاي وسنغافورة، أعصار في المحيط الهندي، سوكوترا، الجزيرة العربية والإسكندرية. بعد شهرين من السفر، وصلوا إلى ترييست التي كانت مجمدة في شهر نوفمبر.

Twitter: @ketab_n

قصة تلي الأخرى ولم يترك أحد منهم الحانة إلا عند موعد إغلاقها.

جاء هانز ذات ليلة في حالة من الهلع يرجو يورغو أن يأتي معه ليُخيط جرح صديقٍ له كان ينزف. لم يرد يورغو الذهاب لأنه يكره التعامل مع المبارزات وممارسيها، لكن هانز أصرّ وقال له أن صديقه سيموت حتماً إن لم يأتِ يورغو وينقذه. قبل يورغو بالذهاب معه متردداً وبدأ يخيط الجرح بدون تخدير كما هو معتاد وأحزنته محاولة المصاب المسكين جاهداً ألا يظهر أي من التألم حيث اعتبر ذلك ضعفاً، لم ولن يفهم يورغو أبداً ما يقود شباب كهؤلاء لمثل تلك المغامرات الحمقاء. أثناء تخييط الجرح سمعوا ضجيجاً وصراخاً ولم يعِ يورغو إلا وهو مقبوض عليه وقضى الليلة في قسم الشرطة. في اليوم التالي قال له رئيس الشرطة أن جريمته خطيرة وسيتم ترحيله. استطاع برايتنر أن يخرجه من السجن في الحال لكن رئيس الشرطة أصر على ترحيله وأعطاه مهلة شهر واحد. مرّ يورغو بلحظات عصيبة إلى أن استدعاه برايتنر إلى مكتبه ذات ليلة.

«إسمع يا يورغو! أصبح من الواضح أن لا مستقبل لك هنا والأسباب عديدة، لقد أخفقت بأن أؤمن لك وظيفة بمرتب وهناك العديد من العمليات الجراحية التي لا يسمح لك بأن تجريها في العيادة فما رأيك في أن تذهب للعمل مع الدكتور كليرمونت في زوريخ؟»

كان كليرمونت جراحاً معروفاً في كل أنحاء أوروبا، من أحسن طلبة فون أيزيلبيرغ وقد اعتبره برايتنر أستاذاً له. لن تسنح ليورغو فرصة أو مستقبل أفضل كما أن زيوريخ ذاتها ستفتح له آفاقاً جديدة. قبل الإقتراح بسعادة جمة رغم حزنه على ترك برايتنر. كتب برايتنر

Twitter: @ketab_n

رسالة إلى كليرمونت في الحال:

«عزيزي بول،

لا توجد هنا الفرص التي يستحقها تلميذي البارع يورغو وسأكون شاكراً لو اخذته تحت جناحك ووضعت يدك على هذا الشرقي الحكيم العنيد،

المخلص، بورغارت برايتنر».

في أثناء انتظار الرد من زيوريخ زار العيادة أستاذ أمريكي فكُلِّف يورغو بالإهتمام به حيث أنه الوحيد الذي يجيد اللغة الإنجليزية. استمتعا بأوقاتهما لدرجة أن يورغو نسي موضوع ترحيله تماماً. وعندما حان وقت رحيله سأله الأستاذ الأمريكي إن كان باستطاعته أن يؤدي له خدمة. فقال له يورغو أن من طموحاته الحارقة أن يكمل دراساته العليا في أمريكا. قبل أن يصل الجواب من زيوريخ استلم يورغو عرض لبعثة دراسية لمدة سنتين في أمريكا، لكن التكاليف كانت أكثر من باهظة فاستعاد حساباته يائساً مرة تلو الأخرى لكنه لم يستطع أن يتدبر أمره وأحسّ بالحرج من أن يطلب مساعدة من برايتنر، فقرر أن يكتب لوالده ويطلب منه المبلغ. كان ردّ والده عليه كما توقع بالحرف: «إنسَ كل هذا، لقد حان وقت عودتك إلى بلدك». بعد أيام قليلة وصل الرد من زوريخ وكتب كليرمونت قائلاً أن باستطاعة يورغو أن يبدأ العمل معه في الحال.

قضى يورغو رحلته من «إنزبروك» إلى زيوريخ يتأمل صامتاً من خلال النافذة ولم ينتبه إلى الفتاة الجميلة الجالسة أمامه ذات الشعر الأسود الفاحم والإبتسامة الفاتنة. لم يبادرها بالحديث إلا عندما اقتربوا من زيوريخ، كانت مصممة إيطالية تعيش في زيوريخ، أعطته

Twitter: @ketab_n

رقم هاتفها وقالت: «السويسريون أناس غامضون وسترى ما أعنيه بنفسك».

كانت الرحلة ممتعة، جسور عالية، ممرات ضيقة وأنفاق. أسعار الفنادق والمطاعم صدمته فمن الواضح أن سويسرا لم تتأثر بالحرب كما تأثرت النمسا وما يراه الآن لا دخل له بفقر ما بعد الحرب الذي رآه هناك. أخيراً وجد فندقاً رخيصاً. ذهب إلى مستشفى الأستاذ كليرمونت في صباح اليوم التالي مستعداً لأداء الواجب.

لأن كليرمونت كان أيضاً أحد تلاميذ فون أيزيلبرغ عامله بلطف ولباقة وتفهم أزمته المالية جيداً فأخذه إلى إدارة المستشفى حيث عينوا له غرفة لطيفة مع حمام وهاتف كما سيأكل مجاناً في المستشفى. رفاهية وترف لم يصدقها يورغو رغم أنه لن يقبض مرتباً. بدا من الواضح ومنذ اليوم الأول أن العيادة مفعمة بالنشاط والحيوية. هناك اربعة أساتذة مساعدين، عشرون طبيباً وكان يورغو الخامس والعشرين.

استصعب اللغة في البداية فقد بدت اللهجة السويسرية وكأنها ألمانية مشوهة إلى حد ما. اتخذ مركزه بجانب ياروسلاف، أحد أقدم المساعدين، طبيباً من براغ تحدث بكثرة عن بلده بلغة ألمانية رديئة ولسببٍ لم يعرفه يورغو، درس في «مونتبيلييه» في فرنسا، إحدى أقدم مدارس الطب في أوروبا. كان طبيباً بارعاً وساعد يورغو كثيراً على التأقلم. قال له أن الأطباء السويسريين لم يحبوا كليرمونت واعتبروه أجنبياً لأنه كان من أصل هوغونوتي أي بروتستانتي فرنسي. لم تكن لدى يورغو أدنى فكرة عن الهوغونوتية واضطر أن يبحث عن معنى

Twitter: @ketab_n

الكلمة في المكتبة. كانوا من أتباع مذهب كلفين واضطهدوا لمعتقداتهم قبل الثورة الفرنسية. سنحت له فرصة التعرف أكثر على كليرمونت حين طلب منه يوماً أن يساعده بإجراء عملية جراحية، كانت حالة مستعصية وبدى أن الأستاذ قد أعجب بأداء الشاب القبرصي، فمنذ ذلك اليوم علا مركزه وبات يستدعيه دوماً لمساعدته.

كان كليرمونت رجلاً مليئاً بالحيوية والطاقة، سريع البديهة، ذواقاً، يحب الحياة والنساء ولم يتقبل أن كل شيء في زيوريخ يقفل الساعة العاشرة والنصف مساءً. لم يدع فرصة تمر إلا وأعلن أن معيشة السويسريين طيبة حقاً، إلا أنهم مملون، متخلفون وعاجزون عن الإبداع. أغضبت مثل تلك التعليقات السويسريين وهنا أدرك يورغو أن العيادة منقسمة إلى فريقين: السويسريون والأجانب. ولأنه جاء من نفس الخلفية الدراسية الڤيينية مثل كليرمونت، كان من الطبيعي أن يكتسب إحترام الأستاذ وبغض زملائه السويسريين.

أقبل عيد الميلاد فأراد يورغو أن يذهب إلى ڤيينا ليقضي وقتاً مع ماريا التي كانت تنتظره، ولكنه بدأ الوظيفة حديثاً ولم يجرؤ على طلب إجازة. كان الإحتفال بالعيد في زيوريخ رائعاً واشترى كل الأطباء هدايا لزملائهم كلفت أموالاً خيالية وحتى المرضى الذين تعالجوا في العيادة قدموا الهدايا الثمينة أيضاً. في ليلة العيد وزّع الأستاذ الهدايا على كل المرضى متمنياً لهم ألا يقضوا عيداً آخر في المستشفى. ملأ ياروسلاف دلواً كبيراً بكل أنواع المشروبات الروحية، أضاف عليهم السكر والليمون ووزع أكواباً من هذا الخليط العجيب للجميع. لم يستسغه يورغو بتاتاً ولكن شربه احتراماً لياروسلاف الذي ظل يملأ كأسه بدون توقف.

Twitter: @ketab_n

إنتهت الحفلة مبكراً حيث كان الجميع مدعوين على العشاء ما عدا يورغو الذي بقي يعمل في المستشفى مع طبيبة سويسرية شابة تدعى إلسي. أصابه ذاك المشروب الشنيع بالغثيان وعندما أيقظته إلسي في صباح اليوم التالي أخبرته أنهم استقبلوا حالة مستعجلة في منتصف الليل وأجرى يورغو العملية على المريض، فاستأصل الزائدة الدودية، ثم رمى كل شيء وخرج من غرفة العمليات. صدم مما قالته فبالكاد تذكر أي مما حدث لكن إلسي طمأنته بأنها أتمت العملية وأن المريض بخير. أسرع يورغو إلى المريض ولم يرتح إلا بعد مرور عدة أيام وتأكد من نجاح العملية وعدم وجود أية مضاعفات. لم تبح إلسي بأي من هذا لأحد وقدّر لها يورغو ذلك أجل تقدير. فدعاها إلى العشاء في أحد أفخم المطاعم في زوريخ وبدد كل ما أدخره في الأشهر الماضية من إصدار الشهادات الطبية للمصابين بحوادث الطرق.

بعد عدة أيام جاء رجل نحيل يبحث عن يورغو، كان مهندساً يونانياً إسمه يانيس بيريكليس، ولد في آسيا الصغرى، تزوج من فتاة سويسرية وأصبح رئيساً للجالية اليونانية.

«سمعت أنك في زوريخ، وجئت لأدعوك إلى العشاء في بيتنا».

عند وصوله إستقبله طفلان مرتديان اللباس اليوناني التقليدي والتقى بالعديد من اليونانيين معظمهم من طلاب كلية العلوم التطبيقية في زيوريخ، مثل أيساراس إليكسيبولوس الذي كان يدرس الفيزياء، وطالبا الهندسة غونارس وكاسماتيس، أما أكثرهم فكاهة كان ثيودوروس سكوتاريس، شاب بنى والده سكة الحديد في تنزانيا واقتنى فيها أملاك لا حصر لها. لم يهتم ثيودوروس، الابن الوحيد، بالدراسة لكنه أحب الحياة وكان ممثلاً بارعاً. عاش أربعتهم في

Twitter: @ketab_n

بيتٍ واحد وكثرت زيارات يورغو حتى أصبح زائراً دائما كما كثرت زيـارات الشـرطة السويسـرية حيث أتـوا ليلياً ليوقفوا الموسيقى الصـاخبة والحفلات التي لا تنتهي.

قـال بيريكليس: «ستفهم قريباً مـاذا نعني بـالشـرطة السويسـرية، لقد أتيت إلى زيوريخ لأعيش مع زوجتي، إبنة رئيس البلدية، ولم يعطوني جواز سفر أو حتى مجرد إذن عمل لمدة عشر سنين فقضيت العشر سنوات عـاطلاً عن العمل ومجبراً على زيارة مركز الهجرة شهريـاً لإثبـات وجودي».

بعد فترة قصيرة، دعـا الأصدقـاء الأربعة يورغو إلى بيتهم وطلب منه ثيودوروس أن يدعو بعض الفتيات، وجد في جيب معطفه رقم هـاتف الفتـاة الإيطـالية التي التقـاهـا في القطـار فـاتصل بهـا ودعـاهـا كمـا دعـا إلسي. وصل إلى الحفلة وهو يشعر بـالاعتزاز ومعه الفتـاتين وقدمهمـا للجميـع: كلارا وإلسي. أعجب يورغو جداً بـكلارا لكن للأسف لم تسنح لـه فرصـة الرقص معهـا فقد قضت كل الأمسية تراقص ثيودوروس الذي أعلن في آخر السهرة أنه وقـع في الحب من أول نظرة. بقي يورغو مع إلسي التي بدت لطيفة جداً وتحبه، أمـا هـو فلم يكن مغرمـاً بهـا لكنه أحب رفقتهـا، قضوا الليلة معـاً في إحدى غرف البيت فلم يكن مسموحـاً للأطبـاء بدعوة النسـاء إلى غرفهم في المستشفى، ولم تستطع إلسي أن تدعوه إلى غرفتهـا لأنـهـا كـانت تسكن مع عـائلة.

كـانت علاقتهم متقطعة وبـالكـاد امضيـا الوقت معـاً. فـأحيـانـا يستأجران غرفة في قريـة صغيرة مـا لقضـاء عطلة آخر الأسبوع لكن

Twitter: @ketab_n

يورغو لم يستطع أن يكرر ذلك كثيراً فلا إمكانياته المالية ولا وقته يسمحان. كانت إلسي فاتنة وحنونة، كثيراً ما تحضر له الحلويات التي تصنعها صاحبة البيت الذي تعيش فيه ودائماً تساعده في عمله بتحفظ حتى لا يشعر أي من زملاءهم بالعلاقة التي بينهما. كان عقل وتفكير يورغو في عالم آخر وأكد ذلك ردة فعل قلبه كلما أتى ساعي البريد وغادر دون أن يسلمه رسالة عليها ذلك الطابع النمساوي. كتبت له ماريا من آن إلى آخر واتصلت به أحياناً فقد أصبح لديه هاتف، يسمع صوتها الرخيم فيقفز قلبه. مع أنه لم يلمسها أبداً ولكن كلما فكر بها شعر بمزيج غريب من الإثارة والسبات، كاللمسة الحنونة.

كتبت له تقول: «أصبحت الحياة صعبة مع النازيين هنا وإبنتي جينا تصر أن أترك ڤيينا واذهب لأعيش معها في لندن ولكن حياتي هنا، عائلتي عاشت هنا جيلاً بعد جيل ولا أستطيع حتى أن افكر بالعيش في أي مكان آخر»؟.

شعر يورغو بسعادة لا توصف حين اكتشف أن الأبحاث كانت محور إهتمام المستشفى فشعر بأنه أخيراً وجد ضالته. فكان على عاتق كل طبيب أن يراجع إحدى المجلات الطبية ويقدم تقريراً أسبوعياً عن آخر التطورات التقنية للعمليات الجراحية وأجروا مناقشات دامت ساعات. عموماً فضّله كليرمونت على الجميع وغالباً ما جعله مساعده الرئيسي وأخذه معه كلما أجرى العمليات وبالذات في العيادات الخاصة حيث يدفعون أجراً لكليهما، لعلمه بحالته المادية. لأول مرة توقف قلق يورغو المالي ودعا إلسي إلى العشاء من آن لآخر واستطاع أيضا أن يشتري لها هدية لطيفة في عيد ميلادها. لكن حقيقة أن أستاذه يفضّله عن باقي الأطباء زاد التوتر بينه

Twitter: @ketab_n

وبين زملائه السويسريين فلم يعد يجلس معه ساعة الغذاء سوى ياروسلاف.

استلم يوماً رسالة مسجلة من شرطة الهجرة في زيوريخ أقرت بأنه في الثالث والعشرين من فبراير، أجرى عملية في عيادة مانهيم مع الأستاذ كليرمونت وقبض أجراً عليها مما يتعارض مع القانون الذي يمنع المهاجرين من العمل، ويضر بالأطباء السويسريين ونتيجة لذلك فهو مأمور بالرحيل من البلد خلال عشرين يوماً. أخذ يورغو الرسالة إلى أستاذه الذي غضب وقال له: «هذه حتماً أفعال زملائك». استقل كليرمونت سيارته وذهب إلى وزارة الصحة في برن، تحدث مع المسؤولين المعنيين ولغى أمر الترحيل لكنه ظلّ غاضباً. بمجرد عودته أملى البيان التالي والصقه على لوحة الإعلانات بالمستشفى: «بما أن القانون الحالي يمنعني من اختيار طبيبي المساعد فمن اليوم وصاعداً أجرة مساعد الطبيب ستخفّض ٥٠٪». وتحت تعليماته سلمت السكرتارية ٥٠٪ من الأجر ليورغو مما رفع دخله بشكل كبير دون أن يضطر لإجراء أية عمليات خارج المستشفى وكما لو أنه يقبض راتباً. بهذا البيان أعلنت حرب رسمية في المستشفى أصابت يورغو بالقلق لدرجة انه فكّر بالرحيل، أما كليرمونت فكانت المسألة بالنسبة له مسألة كرامة وشرف فقد شعر بإهانة شخصية من هذه الخيانة وأراد أن يثبت سلطته للأطباء السويسريين. مع الوقت استخدم يورغو كمساعد أكثر فأكثر لدرجة أنه همّش حتى أقدم المساعدين، ووصل به التحدي لدرجة أنه عندما أصبح مركز المساعد الأعلى شاغراً عرضه على يورغو الذي رفضه في الحال خوفاً من تصعيد الموقف. توقع يورغو ببراءة أن يقدّر زملائه السويسريين هذه الإيماءة لكن موقفهم تجاهه لم يتغير البتة،

Twitter: @ketab_n

بل بـالعكس، عندمـا ضـاعت سـاعة ذهبية، وصلت الشـرطة السويسـرية ومعهم إذن تفتيش لغرفة يورغو بناءً على معلومات وصلتهم من زمـلاءه وتبعت هـذا الحـدث مقالة في الجريدة المحلية تدعي أن الأستاذ كليرمونت على علاقة غرامية مع زوجة جنرال سويسـري. لم يعر كليرمونت أي أهمية لتلك الإتهامات فقد كان لديه الكثير من النساء لأنه كان وسيماً، يتمتع بالحياة ويعيشها. استمر كليرمونت يرقيه باستمرار مما وتر يورغو تماماً.

بعد ظهر يوم ما وهو منهمك بالعمل أحضروا عاملاً مصاباً جـراء وقوعه عن دراجتـه، فحصه يورغو ولم يجد أيـة اصابات خطيرة فأرسله إلى بيته. في حوالي منتصف الليل سمع جرس الإنذار المستخدم لاستدعاء الجراحين إلى غرفة العمليات على الفور وعندما وصل وجد العامل على طاولة العمليات، واتهمه المساعد واغنر بالإخفاق بتشخيص نزيف داخلي اضطرهم لاجراء عملية جراحية مستعجلة في الجمجمة. وقال له: «من المخجل أن تحدث أخطاء تشخيصية كهذه في المستشفى»، وأمـر يورغو بأن يغسل ويستعد لإجراء العملية. انحرج يورغو لدرجة أنه تمنى الموت لكنه استعاد رباطة جأشه عندما ظهرت نتيجة العملية سلبية على كلا يمين ويسار المخ، فخلع يورغو قفازيه وترك الغرفة بصمت. كانت نتيجة هذا الحدث إيجابية على يورغو فأخيراً لم يعد يأكل لوحده في مطعم المستشفى فبعض الأطباء تعاطفوا معه وصادقوه. بالرغم من ذلك، كتبت جريدة سويسـرية بعد أيام بأنه لا ينبغي أن يترك مصير المرضى السويسـريين في أيدي أجانب ذو خبرات مشكوك فيها. هنا رد كليرمونت في الحال بأن يورغو والذي بالتأكيد تنوّه إليه الجريدة، من أكفأ الأطباء في المستشفى الآن.

Twitter: @ketab_n

بدأ يورغو بالتعوّد على حياة زيوريخ فلأول مرة تصبح حالته المادية جيدة ويستطيع أن يعيش حياة كريمة، يرتاد المطاعم الجيدة والأوبرا، يذهب في أوقات فراغه إلى رحلات على البحيرات والجبال مصطحباً معه إلسي أحياناً وأحياناً أخرى عصابة الأربعة، كما كان يدعو أصدقاءه اليونانيين. لم يسبب له الذعر ويعكر صفو حياته الجديدة سوى تصرفات زملاءه بالمستشفى. ولم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً سوى أن يرفع يديه إلى السماء في يأس. باستثناء ذلك لم يكن على بينة من مستقبله في سويسرا، فبوليس الهجرة بدا وكأنه ينتظر أية فرصة تسنح للقبض عليه. ففي أحد اليالي انقضوا على غرفته وفتشوها ظانّين أنهم سيجدون إمرأة معه. ضايقته كل تلك الأحداث لكنه تحاشى ذكر أي منها للأستاذ لأن ردة فعله العنيفة كثيراً ما قلبت الحال إلى الأسوأ.

دعاه كليرمونت إلى منزله في عطل آخر الأسبوع عندما زاره باقي الزملاء الآخرين مثل برايتنر من إنزبروك أو الأصدقاء القدامى من ڤيينا وميونيخ. رافق قصص برايتنر ونكات كليرمونت أروع الطعام وأحسن أنواع النبيذ وهناك التقط يورغو نميمة كل المجتمعات الطبية في أوروبا، من ذهب إلى أين، من أصبح أستاذاً، من تزوج ومن وقع في الغرام. لحظات لا تنسى جعلت المشقة التي يعيشها في المستشفى محتملة. سرد مرة كليرمونت كيف أنه فاجأ يورغو يوماً ووجده يستخدم كؤوس الهواء. أصيب يورغو بنزلة برد عنيفة فشلت كل الأدوية في علاجها فقرر أن يجرب علاج كؤوس الهواء التي كانت تستعملها أمه في فاماغوستا، في تلك الأثناء كان الأستاذ يبحث عنه، فذهب إلى غرفته، فتح الباب وفوجئ بيروغو مستلقياً على سريره والكؤوس الساخنة على ظهره العاري. ظن أنه قد فقد

Twitter: @ketab_n

عقله، لكن عندما أصيب هو ببرد شديد تذكر الكؤوس وجرّبهم. منذ تلك اللحظة أصبح العلاج يستخدم في المستشفى رسمياً تحت إسم العلاج «الفاماغوستي».

ضمت محاضرات الأستاذ ما يقارب الخمسين طالباً يعرفهم بالإسم، راقب تقدمهم وكان دائماً هناك لمساعدتهم. أراد دائماً أن يجذب إنتباههم بالتنويه عن الحالات الغير عادية فلو استطاع أن يؤجل عملية ما ليجريها أمام طلبته، أجلها. مثال ذلك، حالة الرجل السويسري المصاب بالفتاق الشعبي الضاغط على القصبة الهوائية مسببا ضيقاً في التنفس لدرجة ان لون المريض قارب اللون الأزرق.

حضّروا المريض للعملية وأعلن يورغو للطلبة في المدرج أن العملية ستجرى في الحال، غسل الأستاذ يديه، أخذ مشرطاً، شق فتحة واحدة، فتح القصبة الهوائية، أدخل أنبوبا فيها، وفجأة بدأ المريض يتنفس ثانية وعاد لونه طبيعي.

ظل مركز المساعد الرئيسي شاغراً فكان من الواضح أن كليرمونت مصرًا على يورغو. نصحه بأن يطلب الجنسية السويسرية حتى يتخلص من اضطهاد شرطة الهجرة فتباحث يورغو بالموضوع مع بيريكليس الذي وافق على أنها فكرة جيدة. إلا أن فكرة الإستغناء عن جواز سفره البريطاني أحزنته ولم يستطع أن يتصور العيش هنا بقية حياته، البلد التي ما زالت تشعره بنوع من البرود وعدم الترحيب والغربة.

كان غارقاً في التفكير بكل هذه الأمور حين وصله خطاب من اليونان من ماثيوس ماكاس، طبيب يتمتع بأحسن صيت بين الأطباء الألمان. فتح يورغو الرسالة بفضول شديد. كتب ماكاس

Twitter: @ketab_n

قائلاً انه لم يعتد أن يوظف مساعدين أجانب لكنه قرأ بعض مقالات يورغو في المجلات الطبية الألمانية وها هو يعرض عليه، كحالة إستثنائية فقط، مركز مساعد ثانٍ في مستشفاه بمرتب قدرة ٨٠٠ دراخما، يشمل الطعام والمسكن وبالطبع سيعتمد تقدم مركزه المهني على أدائه. كان هناك من قبله إثنان، الدكتور كوراس ذو خبرة ستة عشر عام والدكتور باريسكيفيس ذو خبرة عشرة أعوام.

وقف محدقاً بالخطاب لفترة، غير قادرعلى التفكير فهو لم ينظر ابداً إلى اليونان كمكان للعمل من قبل. استشار أستاذه كليرمونت الذي مدح ماكاس بشدة قائلاً: «إنه طبيبٌ عظيم ولكن شخصيته حساسة نوعا ما».

ترك يورغو الأمر على ما هو عليه ونسي الخطاب تماماً إلى أن استلم ثالث أمر بالترحيل من شرطة الهجرة السويسرية وكان الأستاذ مسافراً في ذلك الحين فانتظر يورغو عودته ليقرر ما يجب عمله.

وصل إلى المستشفى ذات يوم صبي في الرابعة من عمره. كان قد وقع من على صخرة وأصيبت يده اليسرى بجرح بليغ. بكى الطفل لدرجة أنه لم يستطع حتى الإدلاء بأية معلومات عن أهله فأبلغوا الشرطة. وجد يورغو نفسه مضطراً للبدء بالعملية فوراً نظراً لخطورة التأجيل.

اقترح الطبيب المساعد القائم على الدورية بأن تبتر اليد لكن يورغو عارض بسبب عدم وجود موافقة الأهل حيث لم يعثروا عليهم بعد. أكمل يورغو العملية محاولاً إنقاذ يد الطفل وفوجىء عندما انتهى من العملية ووصل الأهل بأن الأب هو محامي مجلس الهيئة

Twitter: @ketab_n

الطبية في زيوريخ، والمسؤول الكبير عن أمور الترحيل. قضى يورغو ثلاثة ليالي بلا نوم جالساً بقرب الطفل، يشعر وكأن قدره معلقاً بنتيجة هذه العملية. لم تتوفر أية مضادات حيوية في تلك الأيام وأصيب الطفل بالحمى الشديدة لثلاثة أيام حتى بدأ ينخفض مستوى النزيف رويدًا رويداً وهبط تورّم الأصابع واستطاع أن يحركها. بعد عشرة أيام خرج الطفل وعاد إلى منزله. لم يبادل يورغو الأهل أكثر من بضعة كلمات طوال فترة العشرة أيام التي قضاها الطفل في المستشفى ولكن قبل خروجه أهدوه ساعة ذهبية تعبيراً له عن شكرهم وأكدوا له أن يعتبر أمر ترحيله ملغياً تماماً.

اتصل يورغو بإلسي تلك الليلة وذهبا سوياً إلى مطعم فخم وشربوا ثلاث زجاجات من النبيذ الفاخر، فقد أحسّ يورغو بحمل ثقيل ينزاح عن كتفيه ورغب بالإحتفال. وهم في طريق عودتهم التفت إليها قائلاً:

«لقد قررت أن أرحل من هنا وأذهب إلى اليونان». صُدمت إلسي وأمسكت ببوابة البيت لتجنب الوقوع من هول الصدمة.

في صباح اليوم التالي اتصل بماريا

«إني آتٍ إلى ڤيينا». وعرضت عليه أن ينزل عندها في البيت.

Twitter: @ketab_n

ثينا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رآها على رصيف المحطة وكاد قلبه ينفجر، ترتدي معطفاً من الفرو، شعرها أطول، بدت أجمل مما يتذكر ولوّحت له. حَضَنها وشعر بدقات قلبها تتسارع كدقات قلبه، السماء تمطر والشوارع تتلألأ وأحس يورغو بأنه قد عاد إلى وطنه.

مروا بالأوبرا، شارع «رنغستراسا» ورأى الترام، نظر إلى ماريا وراء مقود السيارة وتمنّى ألا تنتهي هذه الرحلة أبداً.

قابلتهم الخادمة سترافكا ودعت ماريا بعض أصدقاء يورغو القدامى ليزا وزوجها وبعض زملائه من المستشفى. كم سعد يورغو بوجوده في مدينته المفضلة محاطاً بأعزّ أصدقائه. أعدت ماريا عشاءً فاخراً، تدفق النبيذ وبعد أن ودّعوا آخر الضيوف جلسا أمام المدفأة لبعض الوقت. لم ينبس بكلمة عن اليونان لكن أخبرها عن الأوقات الحلوة والمرة في زيوريخ.

ذهبت الخادمة إلى النوم بعد أن أرته غرفته حيث رأى يورغو السرير المريح، صحن من الفواكه والزهور. صعدا السلالم الخشبية وشعر بالارتباك وازداد ارتباكه مع صرير كل خطوة حتى عجز عن الكلام.

Twitter: @ketab_n

و فجأة قال: «عرضوا عليّ وظيفة في أثينا». فقالت وفي صوتها نبرة من الإستسلام: «ظننتك قد أتيت لتبقى».

دخل إلى غرفته وأقفل الباب من خلفه، نزع ثيابه وغرق داخل الشراشف الباردة. من المستحيل أن ينام. استلقى محدقاً بالباب، منتظراً. انفتح الباب، دخلت ماريا واستلقت بقربه وحضنها إليه بقوة.

في صباح اليوم التالي تناولا الإفطار معا وقالت له بهدوء: «إنك حكيم بقرار ذهابك، وكم كنت أود لك أن تبقى حقاً ولكن الأمور هنا تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. أخي المتفائل بطبعه، مؤمناً بأن هتلر سيُهزم في النهاية، إنه بالطبع يؤمن بقوة الإشتراكية أما أنا، فماذا يمكنني أن أقول؟ إنني للأسف أفقد قليلاً من شجاعتي مع مرور كل يوم وأقول لنفسي، يستحيل أن يكون العالم مجنوناً لهذا الحد ولا بد أن يتغلب المنطق والعقل. لكني بدأت أشك وأشعر بالقلق مؤخراً فمنذ يومين انهالوا على دييتر بالضرب في وسط الشارع ولم يجروٌ أحدٌ على أن يوقفهم ولم يساعده أحد، هذه أمور فظيعة. بالطبع أنت لست في خطر لأنك لست يهودياً، ولكن مع هؤلاء المجانين لا شيء أكيد، هل قررت حقاً أن تذهب إلى أثينا»؟

«لا أدري، وأعترف أنني محتار. فأحيانا أقوم من نومي وأقرر أنني سأعود إلى قبرص فقد كتب لي أبي أنه أتم بناء أول طابق في العيادة، وعند حلول مساء اليوم نفسه أغير رأيي. أشعر أنني لو عدت إلى قبرص سأتبدد هناك. فأنا حقاً لا أرغب بالعودة لكن جزءاً مني يحن إليها. سأذهب لشراء بعض الأدوات الجراحية اليوم». فقالت له وهي تلمس ساعده بحنان: «إبقَ معي لبضعة أيام على الأقل».

Twitter: @ketab_n

التقيا في مطعم على النهر بعد أن اشترى الأدوات، تناولا لحوم الطرائد التي يحبها يورغو وشربا نبيذاً أنعسهم واضناهم.

«أعطيت ستراڤكا إجازة اليوم، فلنذهب إلى البيت».

جلسوا في حجرة الصالون لبعض الوقت ولمع شعر ماريا الأحمر تحت أشعة الضوء المتسللة من النافذة وجلست القطة على حضنها تهس باحتراس.

«يستطيع أخي أن يجد لك عملاً هنا، إنه ذو منزلة عالية جداً في الحزب وهو الآن في لندن مجتمعٌ مع الإشتراكيين البريطانيين. أستطيع أن أكلمه إن أردت».

لمس يدها في صمت فاستطردت قائلة: «لم تعد ڤيينا كما كانت، إنني أعرف هذه البلدة تمام المعرفة، ولدت هنا ومشيت كل ركن فيها، ولأول مرة في حياتي أشعر بالخوف والخطر من شيء اعتبرته طوال حياتي آمناً ومطمئناً، أليس ذلك غريباً؟ تريدني جينا أن أذهب وأعيش معها في إنجلترا، أتتخيلني هناك؟ سأكون كالسمكة خارج الماء. لكن حتى بائع الحليب هنا أصبح عضو في المليشيات. عند عودتي ليلة أمس مررت بمظاهرة للحزب الإشتراكي، إتخذت يميناً لأتفادها فوجدت نفسي في وسط مظاهرة لقوة الدفاع المدني كيف ومتى ستنتهي هذه القصة»؟

هست القطة مرة أخرى فأنزلتها ماريا الأرض وأخذت يورغو من يده بحنان وقادته إلى الطابق العلوي. استلقيا على الفراش بإلفة كما لو كانا عاشقين قديمين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أثينا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هطل المطر بغزارة يوم وصل يورغو إلى محطة القطار المركزية في أثينا. كان يوم الخامس عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣. استغرب لسماع اللغة اليونانية من حوله، البائعون في كل مكان، والمسافرون يحملون أمتعتهم. تأمل الملصقات الإعلانية في أنحاء المحطة محاولاً فهم نوع الحياة التي تنتظره.

«الحلاق الصغير» أول فيلم يوناني ذو صوت وموسيقى، بطولة زوزو دولماس والجميلات الصغيرات، يجري عرضه في صالة بانثيون. أما في صالة سنترال فكان عرض فيلم «قصة التنورة الرائعة»، الصالة مزودة بالتدفئة، شيئٌ ذكره بالذي مضى. هناك سباقان في حلبة فاليرون يوم الأحد. ورأى أيضاً ملصقة إعلانية كبيرة تعلن عن فيلم «قناع فومانتزو» في صالة أتيكون، فيلم عظيم من بطولة بوريس كارلوس وميرنا لو.

وهنا رأى العنوان الذي أذهله: «ستر ومعاطف مستعملة بمائتي دراخما فقط». توقف يورغو مصدوماً وتساءل: «بالتأكيد مرتبي يساوي أكثر من أربعة معاطف مستعملة!» بحث في الحال عن بنك ليتحقق من سعر صرف العملة وصعق عندما وجد أن مرتبه لا

Twitter: @ketab_n

يساوي شيئاً فلقد حسبه قبل أن يأتي على أساس سعر الدراخما كما كان يعرفها من قبل وملأت الخيبة واليأس كيانه وخطر في باله أن يعود إلى القطار ويسافر فوراً في الإتجاه المعاكس. قال لنفسه: «أنا لم أدرس كل هذه السنين لأنال مرتباً لا أقدر أن أعيش عليه». ثم تمتم لنفسه: «هدّئ من روعك، لقد وصلت، فانتظرعلى الأقل حتى ترى المستشفى».

بدت أثينا ككتلة من البؤس، ومضت أيام ڤيينا الجميلة! عندما أوصلته ماريا إلى المحطة وانهالت دموعها تبكي بحرقة، انزعج يورغو لدرجة أنه وللحظة فكّر بالإستسلام والبقاء في ڤيينا. لن يستطيع أبداً أن ينسى وجهها وعيونها الحمراء المنتفخة.

دخل أول فندق صادفه، وضع أمتعته في غرفته، اغتسل وألقى نظرة سريعة على الجرائد التي اشتراها من المحطة. يوافق اليوم عيد إسم فنيزيلوس. من أهم الأخبار كان موضوع تطرف القبارصة وتعلقهم بالمبادئ والطقوس الكنسية. بحث عن موضوعات عالمية ولكن بلا جدوى فقد أخذت مقتطفات روايتين معظم المساحة بالجريدة، «التنين وحبه الغامض» و «جِمْلة في الأوكران» للكاتب القائد المجهول. يا للسذاجة.

ثم قرأ خبراً مروعاً: «صدر قانون بتعقيم أربعمئة ألف ألماني وسيتم التعقيم بحسب أوامر محاكم خاصة عددها ما يعادل ألفاً وسبعمائة وثمانين محكمة أنشئت في جميع أنحاء ألمانيا وسيطبق الحكم على كل العاطلين عن العمل ذوي السوابق، تمّ تقييم التكاليف بخمسة عشر مليون مارك ألماني». للحظة أحسّ يورغو بالسعادة

Twitter: @ketab_n

الغامرة لتركه أوروبا وكونه بعيداً رغم المرتب التافه.

نزل من الغرفة وأستقل سيارة أجرة واتجه إلى مستشفى البلدية لزيارة مارينوس جيرولانوس عميد الجراحين واليوناني الوحيد الذي قابله في حياته. توقفت السيارة أمام مبنى مُترهل يقع وراء الجامعة وفُجع عندما دخل مدرج العمليات ورأى ما فيه من أدوات بدائية، وإضاءة رديئة ولهوله وجد التدفئة بواسطة الحطب. عرّف نفسه على الأستاذ الذي ميزه في الحال لأن كليرمونت كان قد كتب له عن يورغو، فتحدثا عن الجراحة عامةً في اليونان وأعطاه موعداً لمقابلته في المكتب. عند خروجه التقى بكوستانتين بروكوس أحد زملائه من أيام الدراسة في ڤيينا وأخذه كونستانتين بجولة في أنحاء المستشفى ثم أراه سكن الأطباء، غرفة داكنة تحت الأرض فيها أربعة أسرّة والملابس معلّقة على مسامير في الحائط. كلما رأى شيئاً مثل هذا تعود به ذاكرته إلى زيوريخ. سيبعث ببرقية حالاً ينبئهم بعودته.

قال بروكوس: «لا تفزع فالأمور أفضل بكثير في مستشفى الصليب الأحمر».

سيارة الأجرة غادرت أثينا في إتجاه مستشفى الصليب الأحمر التي تم بناءها حديثاً خارج المدينة، وكم ارتاح يورغو عندما رأى مبنى مثيراً للإعجاب وأفضل حتى من مبنى المستشفى في زوريخ.

موعده مع الأستاذ ماكاس بعد ساعة. لم يعرف عن ماكاس سوى أنه رجلٌ غريب الأطوار، درس الطب في ڤيينا وعمل في بون إلى أن استدعته الملكة أولغا إلى اليونان. ذاع سيطه في الدوائر الطبية

Twitter: @ketab_n

الألمانية حين نشر بحثاً عن عملية لعلاج الأطفال المولودين بدون مسالك بولية. كتب كتاب بعنوان «أخطاء ومضاعفات العمليات الجراحية»، تُرجم إلى لغات عدة وأعيد نشره حديثاً في زيوريخ دون ذكر إسمه كمؤلف، وقد درس يورغو الكتاب بنفسه ودوّن بعض التساؤلات.

تحدث الأستاذ بمنتهى الإختصار وأمره بالبدء بالعمل في اليوم التالي. كان يورغو جراحاً ذا خبرة، اعتاد على إجراء عدة عمليات يومياً لكن وبرغم ذلك فرض عليه ماكاس أن يقف بجانبه طوال الخمسة عشر يوماً الأولى يراقبه دون أن يسمح له بمساعدته. أحسّ يورغو بالإهانة والإحباط من هذا التصرف وعزم كل صباح على إرسال تلك البرقية لزيوريخ مؤذناً بالعودة حالا.

اتسمت المستشفى بذلك الإنضباط الصارم المعتاد، فلم يجرؤ أحد على المناقشة وفي اليوم الخامس عشر طلب منه ماكاس أن يغتسل ويساعده في عملية مرارة، تمّ كل شيء على ما يرام إلى أن كشف الجهاز البولي ومرر الخيط لإتمام الوصلة. فجأة قال له بغضب: «إحذر من قطع الوصلة وإلا طردتك»! فاحتدّ يورغو، فلم يجرؤ أحد أن يكلمه بمثل هذه اللهجة من قبل. ترك الوصلة وخرج قائلاً: «إذن تفضل واربطها بنفسك»! عم صمت قاتل في غرفة العمليات وسمعه يقول: «أخرج فأنت مطرود»! خلع يورغو قفازيه وذهب لغرفته واستلقى على سريره قائلاً لنفسه: «يبدو أنني سأقضي بقية عمري أصف دواء الكينين في فاماغوستا» فقد كان أمامه ثلاثة خيارات، العودة إلى زوريخ، إلى ڤيينا، أو إلى فاماغوستا.

Twitter: @ketab_n

استدعاه الأستاذ في المساء ولم يرغب بالذهاب، لكن مساعد ماكاس أقنعه. لاقاه الأستاذ بهدوء وطلب منه الجلوس لكن يورغو بقي واقفاً.

«أعتذر عمّا حدث، فأنا حقاً أقدّر ما تملك من كرامة وأود لو تبقى في المستشفى، لكن إن أردت العمل بسلام فعليك التحمّل لأنه من الصعب عليّ أن أتغير بعد كل هذه السنين. أرجوك أن تعود إلى مهامّك».

عاد يورغو إلى العمل ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقاته مع الأستاذ ممتازة. كانت الحياة في مستشفى الصليب الأحمر صعبة، فبدأ العمل في الساعة السادسة والنصف صباحاً بأول جولة بين الأجنحة قبل مجيء الأستاذ ليستمع لموجز عن الحالات الموجودة من ممرضة النوبة الليلية. وحتى بعد سنة كاملة من العمل ووصوله لمركز مسؤول عن الجناح الخاص، كان يصل الأستاذ في موعده، الساعة السابعة دون أن يلقي عليه التحية. حاول يورغو أن يتجاهل هذا الوضع ويتقبّل تصرفه الغريب لأنه يدرك تماماً أن ماكاس جرّاح فوق العادة. لقد اعتبر يورغو نفسه جراحاً بارعاً بالطبع لكنه لن ينكر أنه تعلّم الجراحة الحقة من ماكاس الذي كان محترفاً حقيقياً ذا موهبة غير عادية. أجروا العمليات يومياً حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. كان الطعام في الكانتين سيئاً لدرجة أن الأطباء احتجوا يوماً وذهبوا شاكين إلى ماكاس في مكتبه، فطردهم صارخاً: «ألا يخجل شباب في عمركم، أن يشتكوا من الطعام»؟ بالطبع تناول يورغو طعاماً أفضل من غيره حين تولى مسؤولية الجناح الخاص، فالممرضة تجلب أكلاً خاصاً للطبيب المناوب. أما المشكلة الأخرى كانت قضية الإجازات، فعمل الأطباء يومياً من الساعة السادسة

Twitter: @ketab_n

صباحاً إلى العاشرة ليلاً واجتمعوا في العاشرة في سكن الأطباء يتبادلون النكات ويلعبون الورق.

عندما أُجريت عملية استئصال ورم سرطاني من كبد أندرياس كارولو، محامي الملكة، استدعت الممرضة المناوبة يورغو كل بضعة ساعات لأن المريض يشعر بالأرق والألم وفي النهاية نام على كرسي بالقرب من سرير المريض. استمر هذا الحال لمدة شهراً كاملاً حتى توفى المريض، فوقّع يورغو على شهادة الوفاة مرهقاً وخرج من المستشفى في الحال لمشاهدة فيلم وليريح أعصابه حيث أنه لم يخرج من المستشفى لمدة شهر كامل. في تلك الأثناء وصلت حالة زائدة طارئة وثار ماكاس غضباً لغياب يورغو وصرخ عليه في اليوم التالي وما كان من يورغو إلا أن صرخ في وجهه هو الآخر فتوقف ماكاس عن الجدال تماما.

استقل الأطباء القادمون من أثينا الباص كل صباح إلى آخر محطة في «أمبيلوكيبوس» التي تبعد مسافة كيلومتراً عن المستشفى. وغالباً ما كانوا يركضون كل هذه المسافة ليصلوا قبل ماكاس الذي كثيرا ما يمر بهم دون أن يتوقف ليوصل أياً منهم حتى ولو كان الجو عاصفاً. قال الدكتور زانثوبوليدي أنه حين عاش مع ماكاس في خيمة لمدة ستة أشهر أثناء حملة آسيا الصغرى، لم يتبادلا أكثر من كلمتين يومياً، وأن تصرفاته هذه لم تكن عائدة لتدريبه العسكري فقط بل لظروفه العائلية أيضاً. فقد كان أبوه وجده أساتذة في جامعة أثينا وعندما استلم عمله في مستشفى إفانجيليسموس وباءت أول ثلاث عمليات جراحية له بالفشل انتشرت الشائعات وذهب مدير المستشفى بنفسه ليبدي مخاوفه إلى الملكة أولغا التي

Twitter: @ketab_n

كانت رئيسة أعضاء هيئة المستشفى. اتصلت الملكة بوالد ماكاس الذي طمأنها بأن هذه كانت مجرد صدف وأن إبنه طبيبٌ بارع كما آمن زانثوبوليدي بأن ماكاس كان سادياً يلتذ بإرهاق مساعديه.

راقب يورغو الحالة السياسية تتفاقم في أوروبا وعندما دخلت الجيوش الألمانية إلى النمسا عام ١٩٣٨، قاسى من توتر رهيب إلى أن استطاع أن يتصل بماريا هاتفياً، ولأول مرة لاحظ الرعب يتصاعد من صوتها رغم محاولتها إخفائه عنه. لقد دعتها إبنتها لزيارتها في إنجلترا ولم تنجح في تأمين إذن بالخروج بعد، فالأمور لم تعد سهلة والإجراءات أصبحت بغيضة وطويلة مع أنها أنفقت أموال طائلة لمجرد إصدار الأوراق اللازمة. كان لماريا أصدقاء ذوو نفوذ كالسفير البريطاني بذاته لكن مع ذلك لم تستطع تدبير التصاريح اللازمة.

«آه يا ماريا. ألا تذكرين عندما أتيت من برلين وقلت لك أن هذه القصة لن تنتهي على خير. ألا تذكرين كم أصريت عليك أن تتركي النمسا»؟

مرّ شهران دون أن تستيطع ماريا تدبير أمورها وتأمين تصريح الخروج و بدأ هتلر يهدد بغزو تشيكوسلوفاكيا. اتصل بها يورغو أسبوعياً إلى أن اتصل يوماً ولم تردّ فقال في نفسه: «الحمد لله، أخيراً استطاعت الخروج». حاول الإتصال بإبنتها لكن لم يرد أحد أيضاً ثم تذكر أنها أخبرته بأن ابنتها ستغادر إلى الولايات المتحدة خوفاً من حدوث حرب فتخيلهما على متن سفينة تقطع المحيط الأطلسي. لكن بقي جزء منه قلقاً فلربما لم يتم الأمر تماماً كما يتخيل وظلّ ينتظر تلغرافاً أو مكالمة هاتفية.

Twitter: @ketab_n

بات يسأل نفسه: «لِم لمْ تتصل»؟! فقرر أنها تركت على عجل ولم تسنح لها الفرصة. مرت الأسابيع بدون أية أخبارعنها فتزايد قلقله وما بيده حيلة. استمع الجميع كل مساء إلى أخبار ال بي بي سي وتناقشوا حول ما سيحدث. إلى أن جاء يوم الجمعة الحزينة من عام ١٩٣٨ حين توقف الأب أنيستيس عن ترتيل الصلاة في كنيسة المستشفى ليعلن إجتياح إيطاليا لألبانيا وألقى مدير المستشفى كلمة بعد القُدّاس ليؤكد خطورة الوضع على اليونان. عادوا إلى سكنهم بقلوب مُثقلة، لاحت غيوم الحرب ولكن مع ذلك سارت الحياة في المستشفى وكأن شيئاً لم يكن.

كان باريسكيفيس صديق يورغو من أعز أصدقاء الموسيقار المشهور ميتروبوليس الذي كثيراً ما زار سكن الأطباء واستمع معهم للأخبار وناقشهم بها. عشق يورغو وباريسكيفيس الموسيقى الكلاسيكية وغالباً ما حاولا حضور حفلات المايسترو في العاشرة والنصف صباح كل يوم أحد في حدائق زابيون. ارتديا أحسن ملابسهما وأخفياها تحت سترهما البيضاء ينتظران انتهاء جولات ماكاس الصباحية. لو انتهت الجولات مبكراً لتوفر لهما بالكاد ما يكفي من الوقت لاستقلال سيارة الأجرة والوصول إلى الحفلة على الوقت، إنما غالباً ما استدعاهم إلى مكتبه ووقفوا حوله في صمت تام لا يكسره سوى صدى نقر قلمه على المكتب فيهمس له زانثوبوليدي: «وتقُولْ لي بأنه غير سادياً»؟

في أحد الأيام حين بدأ ماكاس بإغلاق مكتبه عند الساعة الحادية عشر والنصف انفجر يورغو قائلا: «لنسأله يا باريسكيفيس».

أجابه: «أجُننت؟ سيطردنا في الحال وسنجد أنفسنا بلا عمل».

Twitter: @ketab_n

وبالفعل أحسّ يورغو بأنه سينفجر لأن ماري كارولو إبنة المحامي المتوفي قالت له أنها تذهب دائماً إلى تلك الحفلات الموسيقية، وكانت هذه الفرصة الوحيدة له لملاقاة تلك الفتاة اللطيفة التي كانت ترغب بالدراسة في ڤيينا. فحدثها الكثير عن دراسته هناك لكنه كان دائماً حذراً في التمادي مع أقارب مرضاه. في وجود أمها وأخيها لم يتكلم معها بتاتاً لكنها عندما تأتي لوحدها كانت لا تكُف عن الكلام محولة نظرها إلى أبيها كل برهة وكأنها تتأكد من أنه ما زال في غيبوبته.

ذهب يورغو إلى جنازة أبيها من أجلها، حيث فاز بنظرة أو اثنتين من عينيها المليئتين بدموع الحزن والحِداد. كان يتذكر بولع نظراتها وشدّ على يدها عندما قدم لها التعازي حتى وهو يُخرج قطع الشاش، ويمسح الدم أو يخيط الأوردة في غرفة العمليات، تلك اليد الثابتة الرقيقة.

مرّ شهرٌ بكامله دون أن يرى الفتاة، إلى أن ظهرت يوماً مع أمها في الجناح الخاص مع ماكاس مما أزعج يورغو فلن تسنح له فرصة الإقتراب إلا إذا استدعاه ماكاس شخصياً. انتظر في الردهة إلى أن خرجوا فحيّا الأم وكأنه كان ماراً بالصدفة وألقت عليه ماري نظرة يائسة ولحقت بأمها. سأل ماكاس بعدم اكتراث مفتعل وهما في غرفة العمليات: «ما بها السيدة كارولو»؟ فردّ ماكاس: « إبنتها تشتكي من آلام في المعدة لكنني لم أجد تفسيراً طبياً لها». اضطرب يورغو واحمرّ وجه فنظر حوله ولكن ولحسن الحظ انشغل الجميع بأداء العملية ولم ينتبهوا إليه. أزعجه سماع هذا الخبر فلم يعرف إن كانت متوعكة فقط أو مصابة بمرض خطير. لم يملك أية وسيلة للإتصال بها حيث كان

Twitter: @ketab_n

مجتمع أثينا مجتمعاً مغلقاً ولن يتمكن من أن يخاطر ويكلمها.

وصل إلى المستشفى طردٌ بريدي بإسمه احتوى على ربطة عنق ورسالة من ماري كتبت فيها: «كل عام وأنت بخير». تفاجأ يورغو وتمعّن بها مراراً في حيرة من أمره، كيف سيتصل بها ويشكرها؟

«ما هذا المجتمع الذي يحرمني حتى من أن اتصل بها بالهاتف رغم كل العلاقات العاطفية التي مررت بها»؟ شجّعته هذه الفكرة، فاندفع إلى الهاتف واتصل بالرقم الذي ما زال يدور في رأسه منذ أيام وأيام.

«أرجو التحدث مع الآنسة ماري».

«مَن المتحدث»؟

«الدكتور يورغو».

مرّت الدقائق كالسنين إلى أن سمع صوتها. شكرها على ربطة العنق ولكنه وجد ردّها قصيراً ورسمياً.

غضب من نفسه وتمنى لو أنه لم يتصل بها وتذكر ماريا. داهمته كوابيس طوال تلك الليلة وهو يفكر بأسوأ الإحتمالات. لقد تطايرت إشاعات كثيرة حول قتل اليهود في المعتقلات الجماعية، وقال البعض بأنها دعاية شيوعية ولا يمكن لأحد أن يؤكد الخبر، لكنه شعر بأنها كانت ستجد وسيلة للإتصال به لو كانت بخير وأمان. ولكن ربما أضاعت رقم هاتفه.

مرّ شهرٌ، ونسي يورغو قصته مع الآنسة كارولو إلى أن رأى باريسكيفيس يجري نحوه قائلاً: «إنهم يهيئونها للعملية». ركض يورغو ليرى ما يجري دون أن يدرك أن ماري ظلت تعاني من آلام في

Twitter: @ketab_n

معدتها إلى أن قرر ماكاس أن يجري لها عملية لعله يكتشف السبب. انصدم يورغو لهذا القرار وخشي أن تكون قد افتعلت كل ذلك لمجرّد أن تراه لكنه سرعان ما استسخف الفكرة ككل واستبعدها. «قد أفقد وظيفتي لكن ليس لدي أية طريقة لإيقاف العملية».

لم يستنتجوا أي شيء من العملية مما أزعج يورغو إلى أبعد الحدود و أحسّ بالمسؤولية رغم أن لا شأن له بالموضوع بتاتاً. التقيا مرتين في الجناح وقالت له أن أمها أرادت أن تزوّجها لإبن طبيب الملك ضد رغبتها، وهنا أصاب يورغو الهلع من أن تنتشر هذه القصة فقرر أن يأخذ إجازة ورحل. أول إجازة له منذ بدأ العمل.

كانت «دبروفنك» مدينة جميلة جداً. تزوّجت ألما، زميلته في الدراسة، من كرواتي غني وكان لديهم بيت جميل على الساحل. أول ما فعله يورغو كان أن استفسر عن ماريا ولم يعرفا شيئاً. لكن الشائعات عن المعاملة السيئة لليهود كثيرة. باتت ماريا هاجسه ولم يعد يفكر في أي شيء آخر.

فجأة، ومن حيث لا يدري ظهرت بوادر كل تعب السنين الماضية عليه وكأن عمره مئة عام. مشمئزاً مما يدور حوله، جلس على المقعد يتأمل البحر ليرتاح لكن بلا جدوى فقرر أن يأخذ القطار إلى ڤيينا ويبحث عنها. وبخه ميركو: «لا تكن غبياً. بأنفك هذا ستغدو على أحد أرصفة ڤيينا نصف ميت بعد ضرب مبرح، إنها ليست بمزحة».

ثارت بينهما المناقشات السياسية فقد آمن ميركو بأن هدف سياسة هتلر كان توحيد الألمان خارج ألمانيا لكن يورغو عارض

Twitter: @ketab_n

رأيه بشدّة قائلاً: «خذ حالة الجالية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا كمثل، كانت كلها مصطنعة، لي صديق يعيش في «بومن» وسمعت منه الحقيقة كاملة. لقد كان ألمان تشيكوسلوفاكيا في الواقع هم الأقلية المفضلة في أوروبا وكل صرخات الإضطهاد المصطنعة التي كانت تدار من اللجنات النازية المحلية كانت قد نبعت من برلين. وبحجة إيقاف اضطهاد الألمان في تشيكوسلوفاكيا استطاع هتلر أن يحول تشيكوسلوفاكيا إلى حطام وهكذا احتوى الرايخ الثالث على أقلية تشيكية تساوي ثلاث أضعاف الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا والآن سيعيد التاريخ نفسه في بولندا لكن هذه المرة لن ينجح».

أصر ميركو: «ولكن الحال يختلف في بولندا».

وقال يورغو: «بل هو ذاتـه». وكما قال تشرشل: «أشهر هتلر مسدسه، وطلب جنيهاً وعندما أخذه، طلب إثنان. لكن في النهاية وافق على أن يأخذ جنيهاً وسبعة عشر بنساً ورضي بالباقي كوعود بالنوايا الحسنة».

أحضر الخادم الألباني مشروب السليفوفيتس لكن يورغو لم يستسِغ شرب الخمر ولم يستطع أصدقاؤه تغيير ذلك. ذهب إلى محطة القطار ليسأل عن مواعيد الرحلات إلى ڤيينا لكن ميركو قاله له: «أنتظر.. فأنا ذاهب إلى ڤيينا بعد بضعة أيام ويمكنك أن تأتي معي».

وافق يورغو على ألا يذهب لوحده، أما ميركو فأعاد النظر في رأيه بألمانيا حينما أُعلن عقد اتفاق السلام بين ألمانيا وروسيا وهي ما تزال تتفاوض مع إنجلترا وفرنسا.

فاجأت سخرية موقف اتفاق الألمان النازيين والروس الإشتراكيين المعاديين لبعضهما البعض العالم بأكمله.

Twitter: @ketab_n

وتساءل يورغو في نفسه: «كم أود لو أعرف موقف باريسكيفيس من هذه الإتفاقية وكيف سيفسر تصرف الإشتراكيين».

مرت أيامٌ تضارب فيها توتر الجوّ مع المنظر الهادئ والبحر الأزرق وترددت أخبار عن إستعدادات إنجلترا الحربية وجهودها لمنع بولندا من لقاء مصيرها كتشيكوسلوفاكيا. وبالرغم من أن الجميع توقع هجوم هتلرعلى بولندا إلا أن الخبر أصاب العالم كالقنبلة وما تلا ذلك كان أغرب من الخيال. عمّ الفزع وبحث الجميع عن وسيلة للهرب. بعد ثمانية وأربعين ساعة من التوتر وجد يورغو نفسه في القطار المتجه إلى «ثيسالونيكي»، ولم ينم طوال الليل.

تصيبه سيرة الإشتراكية الوطنية بالغثيان فقد دعاه أحد زملائه لحضور الألعاب الأولمبية في برلين عام ١٩٣٦ وكان من أحد أبرز أعضاء الحزب لكن عندما رأى يورغو الوضع عن كثب كره الإشتراكية الوطنية تماماً.

فكر في ماريا طوال الليلة وهو في القطار، اتصل بها ثانية عندما وصل إلى «ثيسالونيكي» ووجد خط الهاتف مقطوعاً.

عاد إلى أثينا واستقبلوه في المستشفى وكأنه أخوهم الضائع.

سألهم: « ما كل هذا الإحتفاء، لقد كنت في مجرد إجازة وعدت».

أثناء غيابه حضر رئيس الوزراء ميتاكسا إلى المستشفى واستدعى جميع الأطباء قائلاً: «إن الحرب قادمة لا محالة ويجب أن نكون على أتم الإستعداد لهذه اللحظة الحزينة، أنتم كأطباء على عاتقكم مهام صعبة. هناك نقص في عدد الممرضات المتمرسات وستكون

Twitter: @ketab_n

مهمتكم الأولى تدريب وتنسيق فرق من الممرضات المتطوعات». هنا استدعى ماكاس يورغو وأسند إليه مهمة تنظيم المتطوعات فظنها زملاؤه محاباة بيد أنه اعتبرها مأزقاً ووجب عليه أن يكون قدوة لزملائه، وهكذا إلى أن تصدرت الأميرتان فريدريكا وكاترينا قائمة المتطوعات.

كان عدد المتطوعات كبيراً لدرجة أنه اضطر لأن يقسم كل صف إلى قسمين، أحدهما في الصباح والآخر بعد الظهر مما اضطره لأن ينقطع عن جميع مهامه الأخرى. ولم تتقن الأميرة فريدريكا اللغة اليونانية فأرسلوا له سيارتهم الخاصة مرتين بالأسبوع لتقله إلى القصر ليلقي عليها الدروس باللغة الألمانية هناك.

كان الجو في القصر طبيعياً ومليئاً بالثرثرة بعض الشيء، قدّمت الحلويات الشهية والمرطبات عى مدار الساعة وبدأ يورغو يعيش عهداً ذهبياً. دعوات للعشاء والرقص وحفلات في أجمل بيوت المجتمع الراقي، أقام صداقات جديدة عديدة، كتي بوتاسي، رينا كولمان، ماريا فولغاري وأخريات من أجمل حِسان أثينا. كانت حياة مباركة من ناحية وحزينة من ناحية أخرى بغيوم الحرب المهيمنة. وفوق هذا وذاك ظل تفكيره بماريا يأكل أحشاءه، وكلما سمع خبراً عن اليهود أسرع ليستعلم. قرأ كل الجرائد واستمع للأخبارعلى محطة الـ بي بي سي ليلاً نهاراً لدرجة أنهم أطلقوا عليه إسم الصحفي.

دروس نظرية في التمريض، تليها دروس تطبيقية والجميع في المستشفى يحسد الشاب القبرصي الذي تحيط به أجمل الفتيات وتتعلقن بكل حرف ينبس به.

Twitter: @ketab_n

قال له باريسكيفاس: «إذا لم تتزوج الآن وكل تلك الفتيات تحت أمرك فلن تتزوج أبداً».

لكن عقل وقلب يورغو ما زالا في مكان آخر.

إستمر ماكاس يعامله معاملة حسنة فاستجمع يورغو شجاعته يوماً وطلب منه أن يرسله للتخصص في أمراض البول ليعود وينشئ قسماً للأمراض البولية في المستشفى، لكن ماكاس لم يقتنع. أحسّ يورغو بأنه لا يتقدم في عمله وحتى معاشه لم يتغير عن ٨٠٠ دراخما منذ أن بدأ عمله هنا.

تلقى مكالمة هاتفية يوماً من وكلاء السفينة «أثينا» المقبلة على رحلة بين «بيراييس» ونيويورك يرجونه ليأخذ مكان الطبيب المناوب الذي أصيب بالتوعك فجأة. رأى يورغو في ذلك فرصة للذهاب إلى امريكا بالرغم من كرهه للسفن فأخبر ماكاس بما نوى عقب انتهاءهم من إجراء العمليات سوياً، ووبّخه ماكاس بقسوة:

«هل جننت، أتبحر الآن والغواصات الألمانية تنسف كل السفن بلا تمييز. هذا ليس بالوقت المناسب لقطع المحيط الأطلسي».

في هذ الأثناء جاء رجل أعمال قبرصي من ليماسول يدعى سوفوكليس شيزاس وعرض على يورغو منصب جراح في المستشفى العامة في ليماسول حيث كان المركز وما زال شاغراً لفترة طويلة لأن الحكومة البريطانية المستعمرة تصر على تعيين الأطباء البريطانيين فقط وكانت هذه أول مرة يُعرض على طبيب قبرصي. المرتب ثلاثة أضعاف ما يأخذه في أثينا والأكثر إغراءً من هذا وذاك هو أن له الحق في إنشاء عيادة خاصة:

Twitter: @ketab_n

تناولا الطعام في فندق «غراند بريتاني» وتباحثا العرض بتفاصيله ولكن يورغو رفضه خوفاً من ضيق أفق التفكير في قبرص وتحسباً لترك مثل هذه المستشفى الجيدة وهذا الأستاذ العظيم. فتركه شيزاس خائب الأمل وعاد يورغو إلى عملياته اليومية مع أن الكثير من الأشياء تزعجه فمثلاً، طالت مدة خدمة المساعدين الإثنين الأعلى مركزاً منه دون أي تقدم مما يدل على أن فرصة ترقيته معدومة. فهل سيقضي بقية حياته على ٨٠٠ دراخما في الشهر؟

قرر أن يطلب من ماكاس مكرراً بأن يرسله في بعثة للدراسات العليا لكن ماكاس لم يكن حتى على إستعداد لمناقشة الموضوع. فغضب يورغو وأبرق في المساء ذاته إلى ليماسول يقبل العرض ليستلم مركز الجراح في مستشفى ليماسول.

تقبل ماكاس قراره ببرود، لكنه في اليوم التالي فاجأه في غرفة العمليات معلناً أمام الجميع: «يا دكتور يورغو، أنا وزوجتي في إنتظارك على العشاء غداً». واستدار إلى الثلاثة مساعدين قائلاً: «وأنتم يا حضرات السادة، مدعوون أيضاً». أمرٌ في غاية الغرابة ولم يحدث من قبل. فلم ينسج ماكاس أية صداقات مع مساعديه بل كان دائماً رسمياً في معاملته معهم. في تمام الساعة الثامنة دقّوا أربعتهم جرس الباب. كانت أمسية مملة، الحديث سطحي ومحدود وفي منتصف السهرة إستدار ماكاس إلى يورغو قائلاً: «لقد تحدثت مع السفير البريطاني بخصوصك هذا الصباح لتنظيم بعثة لك في لندن لتتخصص في جراحة الأعصاب».

فسأله يورغو: «وهل ستكون لي وظيفة هنا عند عودتي»؟ أجابه ماكاس: «للأسف، لا أستطيع أن أعدك بذلك». أغضبه جواب ماكاس

Twitter: @ketab_n

ولاحظ أن زملاؤه ينظرون إلى ساعاتهم تواقين للمغادرة، ولم يشعر أي منهم بالإرتياح سوى عندما لامس هواء الليل البارد وجوههم، بمن فيهم يورغو.

لم يصدق باريسكيفاس بأن يورغو سيغادر وسأله: «إنك تخدعهم لمجرد الحصول على البعثة، أليس كذلك»؟

لكن في الحقيقة لم يكن يورغو يخدع أي أحد بل طفح الكيل به رغم أن رأيه بقي متأرجحاً فعندما عاد إلى قبرص أول مرة أحسّ بإختناق لم ينسه بعد، إنما ما قاله له شيزاس ظل عالقاً في ذهنه: «ماذا ستخسر؟ إن لم يعجبك الحال فبإمكانك العودة إلى اليونان».
إذن في أسوأ الأحوال سيعود إلى اليونان.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ليماسول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رست السفينة في ميناء ليماسول في المساء الباكر وكان أخوه بانتظاره. تلألأت الأنوار وتأملها يورغو محاولاً أن يتخيل حياته في هذه المدينة الجديدة فهو لم يزر ليماسول من قبل. الشوارع تنبض بالحياة، مكتظة بالناس وقد داس على قصاصات من الورق الملون المتناثرة. إنه الكرنافال والناس في كل مكان مرتدين الأزياء التنكرية والموسيقى تعلو صاخبة ففسر يورغو ذلك على أنه فأل خير.

وجد يورغو كل أهل ليماسول الذين قابلهم عبر سنواته في أثينا متواجدين في نادي أكتيون. ملهى ليلي مبني على ركائز فوق الماء، وفي الحال دعاه الجميع إلى بيوتهم وهنا اعترض صاحب الملهى الملقب بثيودور الأسود قائلاً: «عندما ينتهي الجميع من الترحيب بك سيأتي دوري أنا». أدار ثيودور خط السفن بين مصر وليماسول، كان ذو روح مرحة ويعمل بدون كلل، أكبر همومه كان إبنه بانايوتيس الذي أرسله إلى الأكاديمية البحرية في إنجلترا على أمل أن يتخرج ويعمل معه قد تحول إلى راقص في أحد ملاهي لندن. كان الجوّ مرحاً للغاية في أكتيون وأقام ثيودور مسرحاً لفرقة الجاز مع أنه لم يفهم أصول تلك الموسيقى. ففي مرة قال له أحدهم أن لاعب الكمان كسول ويلعب أقل من باقي الفرقة، راقبه ثيودور لوهلة ثم طرده بدون أي مناقشة.

Twitter: @ketab_n

بحر، موسيقى، رقص، أناس بأحسن الأزياء، نساء جميلات، عاد يورغو إلى غرفته في الفجر، مبهوراً ونام حتى الصباح. بدأ حياته في ليماسول بشعور جميل.

أوقظه قلقه باكراً ووصل إلى المستشفى على الوقت، وجد غرفة العمليات رثّة لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار، طاولة العمليات من الخشب، الأدوات قليلة وعتيقة، لا يوجد مختبر، آلة الأشعة خطرة وقديمة وفوق كل هذا البؤس وجد تلك الممرضة الإنجليزية العجوز التي تنظر له باحتقار.

فسأل نفسه: «أمضيت كل هذه السنين أتعلم لأعود لمثل هذه المزبلة؟ سأبرق لماكاس وأعود حالاً إلى أثينا».

قضى ما تبقى من يومه يجول المستشفى محاولاً إيجاد ولو سبب واحد ليبقى فيها.

في المساء مرّ به شيزاس وذهبا إلى نادي أكتيون سوياً. كان القمر بدراً والبحر هائجاً، جلس يورغو لوحده مصغياً لأمواج البحر. فقال لشيزاس: «الحالة في المستشفى بائسة ولا أدري ماذا أفعل»؟ فأجابه: «لم لا تبقى لمدة ستة أشهر وترى كيف تسير الأمور».

لم ينم طوال الليل وذهب في الصباح التالي إلى المستشفى منهك القوى دون أن يحلق. وجد هناك بالإضافة لطبيب إنجليزي مخمور، طبيباً قبرصياً مختصاً بعلم الأمراض إسمه مارينيس، درس في باريس لكن الكسل كان متأصلاً فيه، فقضي وقته كله يسرد النكات ويفرك فتات الخبز بين أصابعه وعندما يدخل المريض لا يقف لإستقباله ولا يكترث حتى بفحصه بل يسأله القليل من الأسئلة

Twitter: @ketab_n

ويصف له الدواء في الحال.

فزع يورغو لذلك وسأله كيف يمكنه أن يشخص المرض دون فحص المريض. أجاب: «يا زميلي العزيز، أنت ما زلت شاباً، لكنك معي ستتعلم الطب الصحيح وتعرف كيف تشم المريض من على بعد». ففهم سبب تجنب كل المرضى تلك المستشفى وضآلة كمية العمليات الجراحية الناجحة التي تجرى بها.

أغرق يورغو نفسه في العمل ولم ينفعل أيٌّ من الطبيبين الآخرين لأنهما أرادا الإبقاء على حالة الهدوء والسلم اللذين يعيشانها. نظّم غرفة العمليات وأجرى أول العمليات بنفسه وبدأ الناس يأتون إلى المستشفى أكثر فأكثر وبجانب ذلك كان يجري العمليات في عيادة الأمراض النسائية الخاصة.

ظلّ الحال على ما هو إلى شهر أكتوبر حين غزت إيطاليا اليونان. لما سمع طبيب الأمراض النسائية أخبار الحرب طلب نصف نصيب يورغو من كل عملية يجريها في عيادته، فغضب يورغو وكانت هذه الحجة التي انتظرها لترك العيادة والبلد. أبرق لأثينا في الحال معلناً أنه عائد ليقدم خدماته كمتطوع ومرّ بمدير المستشفى البريطاني ليقدم له إستقالته. نظر المدير إلى الرسالة وأخبره بكل برود أن حالة الطوارئ قد أعلنت هنا بسبب الحرب، ووجوده في المستشفى أصبح إلزامياً ولا يسمح له حتى بالخروج من البلد.

كانت هذه أول مرة يشعر فيها يورغو كالمسجون ومرّت أيام عدة قبل أن يصحو من الصدمة. لم يكفه معاشه كطبيب حكومي ففي

Twitter: @ketab_n

العقد الذي وقعه استغنى عن حقوقه بالراتب التقاعدي مقابل الحق بفتح عيادة خاصة.

سمع عن فندق أعلن إفلاسه فاستأجره في الحال بكل معدّاته. كان الموقع مركزي، بجانب مكتب البريد، مبنى الحاكم والبلدية على تقاطع شارع ثميدوس وشارع إفيغينييس. في الدور الأول بنيت الحجرات حول ردهة واسعة وكان له شرفة كبيرة تنتهي عند قرميد البيت المجاور حيث تستطيع أن ترى البحر، فبنى غرفة الجراحة في الشرفة على الطراز الألماني وطلاها باللون الأخضر. خصص لنفسه غرفتين، إحداهما كمكتب والأخرى كغرفة نوم وحوّل كل الغرف الباقية إلى غرف مرضى.

عَيَّن، هافا، سيدة تركية، لتكون المسؤولة عن المطبخ كما عين تيربسو، من «بالايكوري»، ليكون مسؤولاً عن التنظيف والغسيل. استدعى الممرضة الكفوءة أليكي مونتيسانتو من مستشفى الصليب الأحمر في اليونان لتساعده على إدارة المستشفى، اشترى الأدوات والمعدات من محال مختلفة وبدأ بإجراء العمليات مع بداية الحرب. استمرت العمليات في العيادة من الساعة السادسة إلى الثامنة مساءً وبعدها كان يجري العمليات في المستشفى. حتى النوم إستحال عليه لأن غرفة نومه كانت ملاصقة لجناح المرضى فسمعهم يسعلون، يتأوهون ويتكلمون أثناء نومهم طوال الليل.

احتاج إلى طبيب تخدير ليساعده فنصحوه بتعيين ثيوفيلوس كوتساباس الذي كانت عيادته في شارع مجاور. لم يكن يورغو قد قابله بعد لكنه سمع بأنه غريب الأطوار، درس في «غراتس»

Twitter: @ketab_n

في النمسا. دقّ بابه يوماً ففتح له شاب يرتدي ربطة عنق رسمية، قدم يورغو نفسه فأدخله إلى مكتبه طالباً من السكرتيرة بأن تلغي كل مواعيده وبدأ قائلاً: «نادني بثيو ولنتحدث عن ڤيينا فنادراً ما تؤاتيني فرصة الكلام عنها».

جلس يورغو مذهولاً بما رآه، فرغم أن البعض قد أنذره بأن ثيو غريب الأطوار لكنه لم يكن يتوقع ابداً ما وجد. جلس ثيو وراء مكتبه يدخن النرجيلة، أغاني الأوبرا تصدح من الفونوغراف، أضواء المكتب مغطاة بجلد الجمال الملونة بألوان باهتة، على قطعة من الأثاث القديمة رُصّت قوارير من الزجاج مليئة بسوائل ملونة تصعد وتهبط مكونة أشكالاً عجيبة، مقابل مكتبه تكدست مجموعة من الحقائب الجلدية القديمة من أكبرها حجماً إلى محافظ اليد الصغيرة. إنتشرت لوحات الرسام كليمت النمساوي على كل حائط، ووسادة وكرسي. المدرسة الڤيينية كانت ظاهرة في كل مكان والأجواء كانت خيالية كما في الأحلام.

لاحظه ثيو وهو يحدق بالحقائب فقال: «الحياة رحلة» وأراه حقيبة سمراء اللون مستطرداً: «حملها عمي وهو قادمٌ من الإسكندرية وهذه الصغيرة أعطوني إياها في المشرحة، كانت ملكاً لسيدة طاعنة في السن احتوت كفنها وصابون من الأراضي المقدسة ولم يردها أهلها فأخذتها.

أما هذه فأعطاني إياها مانيلوس بائع القهوة مدعياً أنها كانت في وقت من الأوقات مصدر رزق عائلته حيث كان يأتي إلى المدينة ليشتري أدوات الحلاقة ثم يبيعها في القرى. نظر إليه يورغو بذهول فحتى الآن لم يتح له فرصة الكلام ليفصح له عن سبب الزيارة.

Twitter: @ketab_n

قام ثيو وفتح باباً وقال: «هنا يا زميلي العزيز تكمن الغرفة السرية». كانت عبارة عن غرفة صغيرة مملوءة بأجمل خزانات الثياب الخشبية المحفورة والمنقوشة واسترسل قائلاً: «هذه خزانة جدتي، آفرا، المصنوعة من خشب الجوز من صنع النجار سليمان الذي كان ذا موهبة ومهارة عظيمتين. هذه الخزانات كالحقائب تحتوي على وجودنا الجسدي، كانت هذه ملك خالتي ميتالى وتلك لجدتي مغدالا وهذه لعمتي زينو، متن وتحولت أجسامهن إلى حامض النتريك، إلى أسبستوس وفسفور، نمى شجرالجوز وصنعت منه هذه الخزانات فكأنهن مازلن بقربي هنا. يا لهم من نساء! قصصهن عن القديسات تأتين وتدق على السطوح، قصص عن العفاريت، كم كن نساءً رائعات تعلمت منهن كل ما احتجت أن أتعلمه».

نظر يورغو إلى الخزانات الزجاجية ومحتوياتها الثمينة، الخزف الصيني الثمين، صندوق سجائر، غليون لتدخين الأفيون، عاج، مجهر وتلسكوب. قال ثيو: «ليتك كنت قد رأيت مجموعة الأجنة التي دفنتها حديثاً». ثم عاد إلى تدخين نرجيلته. «وحش فاسولا» الذي قام بتوليده عمي طبيب النساء، وحش مات أثناء ولادته، وضعه عمي في فورمالدهايد وأصبح أهم ما عرض في كل هذه المنطقة وعندما توفي عمي أعطوني أربعة أجنة. كان هذا مكانهم الملائم لولا أن عاملة النظافة رفضت التنظيف وعندما أصرت على رفضها، قررت أن أدفنهم.

سأرشح نفسي في الإنتخابات القادمة وأنا أرى أن شيئين إثنين سيحسنان حياة أهل ليماسول، أولاً يجب أن ترمم الحمامات التركية وتتحول إلى حمامات فخمة موصولة ببيوت دعارة من الدرجة

Twitter: @ketab_n

الأولى تحمل اسم «مُعامل». سأله يورغو: «و ماذا تعني كلمة مُعامل»؟ فأجاب: «انها كلمة تركية تعني عناية واهتمام، «مُعامل»، كلمة تملأ الفم. الحياة حلم يا صديقي يقطعه صوت خطوات، خطوات أبي التي أسمعها على أرض الدور العلوي. في الماضي امتلأ البيت بالحياة ولكن الآن ماتوا كلهم وأشك أن أبي سيعيش شهراً آخراً ومن ثم لن أسمع صوت خطواته إلى الأبد. الحياة كالحلم الذي تشاهده من خلف الستائر، أنا أحب الستائر ولدي مجموعة هائلة منها في الخزانة، كنت أعشق بالذات تلك الستائر القديمة التي تخبئ غرف الجلوس بكراسيها المخملية الحمراء وخزاناتها المملوءة بالحلويات المسكّرة والفضيات. غرف الجلوس السرية التي تجلس فيها النساء ممتلئات الجسم بملابسهن الداخلية تبردن أنفسهن بالمراوح الإسبانية.

استمع يورغو إلى كل ذلك في حالة إفتتان فأحسّ وكأنه في المسرح، كأنه يشاهد عرضاً خاصاً فجلس على الكرسي الجلدي المريح واستمع بانتباه شديد ولم يحاول أن يوقف تدفق الكلام.

أصبح ثيو طبيب تخدير في عيادة يورغو واستمر هذيانه طوال إجراء العمليات فكان يورغو يخيط المرضى وثيو يتكلم.

«أتذكر لفكي»؟ عندما كنت صبياً اشتريت الأيودين والأكسجين السائل من صيدلية بارباس، ووضعتهم في صندوق قديم وكلما أصيب أحد بجرح في المدرسة أو بالكشافة استدعوني لأضمد جراحه. حديقة لفكي كانت مقابل مركز الكشافة وكانت تجلس هناك وتراقبني، نادتني يوماً وأعطتني صندوقاً حديدياً، صندوق إسعافات أولية حقيقي مثل الذي يحمله العاملون في الصليب الاحمر، بكل محتوياته ولم يسعدني شيئ في حياتي أكثر من ذلك.

Twitter: @ketab_n

يقع بيت بافليديس مقابل عيادة يورغو، بناه حاجي غافزيليس أكبر تجار ليماسول كمهر زواج لإبنته ويقال أن أمواله فاقت أموال دير «كيكوس» بأكمله. بعد أن افتتح يورغو عيادته بعدة أيام وصلته دعوة أنيقة للعشاء في بيت بافليديس، وصل متأخراً حيث جاءته حالة طارئة في المساء تتطلب عملية جراحية. صعد السلالم إلى غرفة الجلوس التي امتلأت بضيوف بمنتهى الأناقة يحملون كؤوس الشامبانيا وموائد ممدودة بالطعام. قدم له النادل صحناً وفجأة وجد نفسه أمام المائدة يحدق في سمكة وكأنها تحفة فنية، قطع من الجزر على شكل ورود وقطع من الخيار على شكل مراوح، منظر لم يرَ له مثيلاً في حياته فسأل بإعجاب عمن صنعها واكتشف أنه رجل روسي جاء إلى ليماسول بعد الثورة، استقرّ هنا وزوّج إبنتيه لأعيان من ليماسول لكنه برغم ذلك لم ينسَ صنعته قط ومن آنٍ لآخر يعدّ الموائد الفخمة لحفنة من العملاء المرموقين.

كانت ليلة لطيفة وعرفوه على الحاضرين قائلين: «دعونا نعرفكم على طبيبنا الجديد وجارنا، نرجو الله أن لا نحتاجه». ولكنهم سرعان ما احتاجوه، فعند منتصف الليل سمعوا ضجةً وصياحاً، انها ليليكا شوزنيك، بتصفيفة شعرها المميزة والتي كانت حياة الكرنفال وروحه. لقد جلست على حافة الشباك ثملة من الشامبانيا، فقدت توازنها ووقعت إلى الطابق الأرضي. لكن الظاهر أن الكحول وشعرها المشدود أنقذاها ولم تصب بأي أذى غير أنها أفسدت السهرة على يورغو حيث أنه اضطر أن يراقبها باقي الوقت ليتأكد من أنها لم تصب بارتجاج في المخ.

ترجم يانوس إلياديس كل مساء في النادي البريطاني نشرة أخبار الـ بي بي سي وأوجز يورغو لهم الأخبار الألمانية. وبقي يفعل

Twitter: @ketab_n

ذلك إلى أن استدعاه ضابط الإستعمار وطلب منه أن يكفّ فبعد غزو ألمانيا لليونان ووقوع كريت تحت الإحتلال اقتنع الجميع أن قبرص هي التالية.

استدعي إلى مكتب المحافظ في نيقوسيا ووجد حوالي ثلاثين موظفاً مدنياً، تحدث المحافظ عن الصعوبات التي تواجهها إنجلترا في جهودها الحربية وقدم لجميع الموجودين جوازات سفر وجنيهات ذهبية. أمرهم بالتجمع في ميناء ليماسول عند إخطارهم حيث ستنقلهم سفينة حربية إلى الشرق الأوسط. كما جاء وزير الإستعمار إلى ليماسول أيضاً ودعى المواطنين للتجمع أمام بيت الحكومة ورفرف علم اليونان بجانب العلم البريطاني، الأمر الذي كان محظوراً منذ حوادث عام ١٩٣٠. تكلم الوزير عن الخطر المحتم وحثّ الجميع على التطوع والإلتحاق بالوحدة القبرصية لحماية بلدهم، هنا سأله خاليس، أحد الأتراك المعروفين في ليماسول: «ومتى سيبدأ الدفع لهذه الوحدة المتطوعة»؟ فصرّح السكرتير العام بأن الدفع سيبدأ حين تعلن الحرب، إعترض خاليس صارخاً: «لكن يا زعيم! لو وصل الألمان إلى هنا فلن يبقى لديكم من الوقت لدفع أجرة يوم وأحد».

مع قدوم الحرب، قلص البريطانيون كثيراً من الإجراءات الصارمة التي فرضوها بعد ثورة عام ١٩٣١ ففتحت أبواب النادي البريطاني لليونانيين وهكذا شاركوا الضباط البريطانيين في الإستماع لأخبار الحرب في اليونان.

من روّاد النادي المعتادين كان بيتروس إيفانجيليديس، مؤيداً متعصّباً للعائلة المالكة.ويعرف كل ما يمكن معرفته عنهم. تشبث

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة بيورغو وقضى الليلة بأكملها يحدثه عن قصة الألماسة التي على تاج الملكة وقال بيتروس: «انها ملعونة يا دكتور. النساء والرب فقط يستطيعون تفادي لعنتها، أما الرجال الذين توّجوا بها فماتوا أبشع الموت وحسب مقولة هندية، من يلبس هذا التاج يسود العالم كله ولكنه في ذات الوقت يرث كل فواجعه وكوارثه. اسمها كوه النور، أي «جبل النور» بالفارسية، تزن ١٨٨ قيراطاً واكتشفوها في الهند في القرن الثاني عشر». واصل بتروس يصف له البلاء الفادح الذي نزل على كل من لبس التاج وكيف جلب اللورد ديلوسي الألماسة إلى انجلترا في عام ١٨٤٩ مُخاطة في ثيابه كرمز لإخضاع الهند.

حاول يورغو أن يلهي نفسه بسماع صوت الأمواج تتخبّط إلى أن ينتهي بتروس من ثرثرته.

شيِدوا النادي البريطاني بجانب نادي أكتيون وبنوه كذلك على ركائز في البحر وشيئاً فشيئاً انتقل الزبائن إليه. علقت صورة كبيرة للممثلة لورن باكال بقرب البار وفي المدخل تمثال من البورسلان لكلب أبيض وكلب اسود.

تعود يورغو تدريجياً على حياته الجديدة وجاء أناس أكثر إلى العيادة وإلى المستشفى ونظراً لعدم وجود عناية طبية كفوءة في السابق استطاع أن يرى حالات متقدمة ومزمنة من الأمراض لم يتسنى له أن يراها من قبل. كان موقف المرضى مصدراً دائماً للتعجب فوصلت سلال مليئة بالمحصولات المحلية إلى العيادة كبادرة شكر من كل من تمّ شفاؤهم.

Twitter: @ketab_n

أما المسألة التي ما زالت معقدة كانت علاقته بباقي الأطباء الخصوصيين في ليماسول. فقد منع البريطانيون أية علاقة بين الأطباء الخصوصيين والمستشفى الأمر الذي كان غير مقبول برأي يورغو ففتح المستشفى على مصراعيها لجميع الأطباء الخصوصيين. عندما رأى طبيبٌ انجليزي طبيباً خاصا يحضر عملية جراحية قدم شكوى رسمية لحكومة الإستعمار.

هددهم يورغو بالإستقالة وكسب النزاع لأنه كان على حق وبمجهود عظيم نجح في إقناع كل اطباء المدينة أن يؤسسوا رابطة ليماسول الطبية.

تغير حظه عندما قابل أوليمبيا ياكوفيديس وحين سمع الإسم اعتقدها زوجة أريستيديس ياكوفيديس الذي سمع في نادي أكتيون أنه كان مديراً للبنك العثماني في اسطنبول ونيقوسيا وبغداد وعندما ترك مركزه هناك انتقل ليتولى شركة احتكار التبغ الحكومية في القسطنطينية.

إنما في الواقع كانت أوليمبيا زوجة تاجر أقمشة من أغنى عائلات ليماسول ولهم بيت عظيم على شارع أندرياس. لقد لاحظ يورغو تلك العمارة التي صممها زخريا بونداس، المهندس المعماري الذي أتى من كورفو، كما صمم أيضا منزل بيلافاكيس على نسق قصر ماري أنطوانيت. كان الطابق الأرضي من العمارة متجراً تشتري منه كل سيدات ليماسول الكاشمير الانجليزي والتفتا والقطنيات وريش النعام وغيرها.

عانت أولمبيا من آلام فظيعة وظلت تتعاطى المسكنات لإيقاف الألم إلى أن اصبحت المشكلة لا تحتمل فاستدعوا يورغو للإستشارة.

Twitter: @ketab_n

وهكذا دخل البيت الذي طالما أبهره منظره من الشارع، كانت هناك مرآة كبيرة في المدخل تعكس الأثاث الفخم الموجود في البيت ثم بهو طويل يقود إلى غرفة المريضة. جس معدتها وأحسّ ببعض الكُتل ونتائج الأشعة أثبتت ما توقعه، بأن هناك حصوات في القناة المرارية. لم تستطع أوليمبيا أن تسافر للعلاج بسبب الحرب وانقسمت العائلة بالرأي فأصر بعضهم على إجراء العملية في ليماسول والبعض الآخر حذر منها. جاء زوجها في الصباح إلى مكتب يورغو وقال له:

«لم أعد أتحمل أن أراها تتعذب لهذه الدرجة، لقد قررت أن أكلفك بإجراء العملية، أما إن حدث خطأ، فسأقتلك».

قرروا اجراء العملية في صباح اليوم التالي ولم تغف عين يورغو في تلك الليلة، فبالطبع من المحتمل أن يحدث خطأ. كان زوجها يعبدها ولأنهما لم ينجبا كانا مقربين من بعضهما البعض إلى حد بعيد. استيقظ يورغو في صباح اليوم التالي مرهقاً من قلة النوم، وضع رأسه تحت الماء البارد، وأعدت هافا له قهوة مضاعفة، ودخل إلى غرفة العمليات بأعصاب متوترة وما زاد توتره كان تجمع نصف أهل ليماسول في غرفة الإنتظار وكأن هناك مظاهرة. تمّت العملية بنجاح لكن قلقه دام أياماً إلى أن تأكد من أن كل شيء تمّ على ما يرام.

كانت أولمبيا سيدة عظيمة مليئة بالدفء، وروحها مرحة وعندما رفضت البيض المسلوق وأعادته إلى المطبخ للمرة الرابعة مدعية بأن صفار البيض لم يطهى كما طلبته، اشتكت منها هافا فذهب يورغو شخصياً إلى غرفة المريضة ليسأل عن المشكلة.

Twitter: @ketab_n

«ألم تشتك أن كل مرضاك من القرويين، فها أنا أريك كيف تتعامل مع الطبقة الراقية».

كانت هذه بمثابة نقطة التحول في حياته المهنية كطبيب في ليماسول ومن ثم بدأ يستصعب العمل في المستشفى والعيادة. توطدت علاقته بماريوس وأوليمبيا فقضى معهما العديد من الأمسيات وتناول معهما الغداء كل يوم أحد. كانت غرفة الطعام كبيرة ومشمسة تواجه الشرق وتطل على البحر. اجتهد الخدّام الثلاث في تحضير الأطعمة الشهية وكان المطبخ عالماً قائماً بذاته، مغاسله من رخام، رفوفه مملوءة بكل أنواع الفواكه المحفوظة وهناك غرفة للخدم.

تجمع الضيوف عادة في غرفة الجلوس الجنوبية ببابها المواجه للشارع العام وجلست أولمبيا متربعة على الكنبة الحمراء الجلدية وقطتها عند قدميها، تدخن الغليون الطويل الأنيق. كان أحد أعز اصدقائهم، غوغوس بيريستيانيس، سليل عائلة أرسطقراطية من جزيرة سيفالونيا باليونان. وتملك عائلته مصنع «بيريستيانيس» الشهير للكونياك وقيل أنه يملك منضدة من صنع الرسام الشهير مايكل آنجلو. كان غوغوس طويل القامة مليح الوجه ويتسم بالأنوثة نوعاً ما، دائما ما يصطحب شبان ذوي وسامة في سيارته الكشف البيضاء يجولون بها شوارع ليماسول.

في أحد لقاءات يوم أحد قابل يورغو ثيسياس ونيتسا تافيرناريس، كان ثيسياس سكرتير الغرفة التجارية في نيقوسيا ونيتسا موظفة في مكتب المعلومات العامة، متفتحة العقل وذكية ذكرته بصديقاته النمساويات. دافعت عن آراءها السياسية القوية بشدة لدرجة الشجار

Twitter: @ketab_n

مع ثيسياس. علاقاتها وطيدة مع البريطانيين مما أثار سخط الكثير من الوطنيين أما ثيسياس فكان كالموسوعة المتحركة. لم يقابل يورغو أحداً بمثل هذه الدرجة من الثقافة العالية، يعرف كل شيء ومليء بالفضول مما فتن يورغو. ذكره نوعاً ما ببرايتنر لكنه كان أكثر شغفاً وحباً للحياة.

وأخيراً آمن يورغو بأن هناك أناساً مثيرون في كل مكان إن أردت أو اهتممت بالبحث عنهم ولم تكن قبرص ذاك المكان المحدود الذي تصوره. لقاء ثيسياس كان حدثاً عظيماً في حياته فحتى تلك اللحظة لم يستطع أن يغرس جذوراً له هنا لكن تعرّفه على ثيسياس مكّنه من ذلك فقد كان بمثابة البرهان أن العقل المتفتح والروح الحقيقية ممكن أن تتواجد في أي شخص وفي أي مكان.

دعوه إلى منزلهم في نيقوسيا وتشوق ليوم الأربعاء حين يعتلي السلم إلى باب شقتهم في شارع ليدرا. امتلأت الشقة برفوف الكتب الشاهقة التي تعلو متراً ونصف، ولفت نظره لوحة لنيتسا رسمها نيكوس نيكوليديس بالإضافة للتحف الصينية المنتشرة بكل أنحاء البيت فقد كانت نيتسا أول من تاجر مع الصين الشعبية في قبرص. طبخ ثيسياس في وعاء عتيق من الفخار، عزيز عليه يستعمله منذ سنين طويلة وقال ان مذاق الطعام يتحسن كلما قدم الوعاء فلذا يحافظ عليه بحرص مطلق. كان النبيذ رائعاً. هاجمت نيتسا حكومة الإستعمار فقد طبعت تقارير الحرب بنفسها وقالت:
«تحترق أصابعي مما أكتبه ولم أعد أعرف إن كانوا يحاربون الألمان أو يحاربوننا نحن». كثيراً ما ضغط عليها الجانب اليوناني لترك وظيفتها هذه، ومن جانبهم، أعجب بها البريطانيون لأنها لم

Twitter: @ketab_n

تخش أحد ودائماً ما تفصح عما في خاطرها. كان هذان الشخصان مدخله لمجتمع نيقوسيا وتعرف من خلالهما على الحياة في المدينة، قضى ليالٍ وليال في بار «أنتوناكيس» وذهبوا في رحلات إلى كيرينيا وغليكيوتيسا وميرتو.

فرح يورغو عندما انتقل الطبيب البريطاني د. بورتر من المستشفى وتحسن الجو في الحال. حل محله الدكتور فاودري من نيقوسيا وسمع أن الدكتور فاودري رجل صعب وطبيب فاشل، متدين جداً يمضي كل وقته يقرأ الإنجيل لمرضاه. و خاب أمل يورغو لفترة لكنه أحبه في آخر المطاف. كان فاودري رث الثياب، يرتدي الصندل طوال السنة ويقود سيارة قديمة بدون أبواب وهو أول من اكتشف مرض الثلاسيميا. فحتى تلك اللحظة عالجوا الأطفال المصابين بالثلاسيميا كمرضى بالملاريا، عندما نظر خلال الميكروسكوب على عينات من دم الأطفال لاحظ وجود نمط معين يتكرر، فعرض اكتشافه على يورغو وبدأ يدون الحالات المتشابهة. نشرت دراسته تلك في مجلة «لانست» الطبية وكانت هذه بداية علاج ذلك المرض الفظيع الذي فتك بأطفال قبرص لمدة طويلة.

اقترح يورغو على جمعية الأطباء القبارصة دعوة فاودري وزوجته الإيرلندية إلى العشاء وابتهج الزوجان بالدعوة واستمتعا بالأمسية ومع أنهما لم يتناولا شيئاً من المشروبات الروحية سابقاً لكونهما من «الكويكرز»، وهم جماعة بروتستانية متدينة جداً لكن مع مرور الأمسية، قررا أن يجربا كأساً، ثم اثنين إلى أن أصيبا بالسكر ورفع فاودري كأسه مهللاً بإتحاد اليونان وقبرص. طردوه ونقلوه إلى عدن.

Twitter: @ketab_n

أعجب يورغو بسلوك الأتـراك في ليمـاسول فكـانوا يـأتون إلى المستشفى على تمـام الثقة بـالأطبـاء وفي حـال لم تسـر الأمور على مـا يرام، رفعوا أيديهم إلى السمـاء مقتنعين ومؤمنين بمشيئة اللـه ولم يطالبوا بمجلس طبي كما يفعل اليونـان.

مرّ العديد من الشخصيات الغريبة على المستشفى مثل عـالم الحشرات، مـافرو موستـاكي أو مجنون نيسيريو كمـا لقبه أهل ليمـاسول الذين كثيراً مـا رأوه يتسلق أعمدة الكهربـاء ليلتقط الحشرات ليلاً. زادت مجموعة حشراته بكمية لابـأس بـهـا من اروقـة المستشفى. وكذلك كيريـاكوس بـابـادوبولوس، مدرس اللغة الإنجليزية، الذي كثيراً مـا جمع جمهوراً من المرضى وألقى عليهم مؤلفـاته البلاغية. وكذلك جوزف مـاوروس ذو المئة عـام والمغـامرات العـاطفية التي لا تعد ولا تحصى والذي كلمـا تكلم عن حملة نـابليون بونـابـارت على مصر لقبه بـ: «امبونـابـارتيس» كمـا لو أنه أحد أقـاربه.

إحتوت ليمـاسول على مجموعة لا بـأس بـهـا من المجـانين، أكثرهم شهرة كـان كيـازيميس وأرتشونيس. جـال كيـازيميس شوارع ليمـاسول يحمل فروع الريحـان ويقدمهـا لكل من استمـالـه على الطريق منـاديـاً:

«الدولاب يدور» أو «سيكون الدور دورك قريبـاً».

أمـا أرتشونيس فكـان الإبن اللقيط لخـادمة ورجل غني من ليمـاسول وكلمـا مر بـالقرب من كيـازيميس صرخ أحد المـارة به:

«أهجم على كيـازيميس». فيهجم.

زادت المشـاجرة عن حدهـا يومـا فغدا الإثنـان في مقر الشرطة وأخذ القـاضي مـافرومـاتيس القضية بجدية واستمع لكلا الطرفين

Twitter: @ketab_n

وحكم بأن تقسم البلدة إلى قسمين وحدد لكل منهما نصفاً لا يتعداه وهكذا فقط توقف قتالهما.

استمتع يورغو بلياليه في نادي أكتيون حيث الموسيقى والرقص. توماس عازف البيانو وراقصات روسيات، عروض باليه وموسيقى. لم يستهوه لعب الورق فتابع المناقشات السياسية اليومية التي غالباً ما تركزت على الإتحاد مع اليونان. المعتدلون من جهة والمتطرفون القوميون من جهة أخرى وكان رأي المعتدلين بأن بعض البريطانين كانوا بالفعل متحمسون للموقف القبرصي وأن التشدد ضدهم ليس من الصالح الوطني. تخللت مثل تلك المناقشات أغاني ماريكا الرقيقة وعروض السحر. قلما مرت لحظة ملل في هذا النادي. غالباً ما ذهبوا إلى محل سليمان لتناول الحساء بعد السهرة في النادي. من الرواد الدائمين عند سليمان كان فاسوليوتيس الذي كان مصدراً خصباً للنكات ومعه صديقه فوتوريديس الذي كان يجلس مقابله يرن جرساً كلما سمع مبالغة في الكلام.

عشق أهل ليماسول رقص الفوكس تروت، السامبا، التانغو وغيرهم وأقيمت حفلات الرقص على الأقل مرتين في الأسبوع في الفنادق أو في البيوت، تنافس أهل المدينة على مراكز أحسن راقص وأجمل الحفلات زينة، وانشغلت المدينة بأكملها في إعداد مثل تلك الحفلات الراقصة لمدة شهر قبل الكرنفال فزينوا القاعات بأكاليل ورق الزينة والفوانيس الصينية. من أنجح الحفلات كانت تلك التي تقيمها عائلتي كيرزيديس وحاجيبافلوس. كثر مدربو الرقص في المدينة، من أشهرهم كان كيروس بلاتريس المعروف بإسم «كيرودي» الذي نظم الحفلات حتى خلال أيام الصيام. بعد الإنتهاء

Twitter: @ketab_n

من مثل تلك الحفلات غالباً ما انهى يورغو ليلته في «ماكسيم» حيث قابل أصدقاءه الجدد، يانغوس، إلياديس، آرتشونتيديس وتاكيس المجنون، مفتي زاده، وفوفو، لولا وكيزيمبي. الحياة جميلة.

دعاه مفتي زاده إلى الحي التركي في شهر رمضان، حيث أضيئت المئذنة بأضواء ملونة أضفت على المكان جواً من الخيال، فاحت من المطابخ رائحة الكباب واللحم بعجين وكذلك رائحة ماء الورد، القرفة والمهلبية. أقيمت الإستعدادات للإفطار وانتظر الصائمون الذين لم تلامس شفاههم رشفة ماء طيلة النهار الآذان معلناً انتهاء الصيام. مدت الموائد ودعي الكثيرين من اليونانيين من أحيائهم ليشاركوا في تناول الأطعمة الرائعة التي قامت بتحضيرها الهوانم. أما الطبيب فكان مدعواً مستديماً واحتفى به الأهل أينما حل. في شهر رمضان بعثوا بأطباق البقلاوة إلى العيادة وقدمتها هافا للمرضى الذين تمنوا لأصدقائهم الأتراك رمضاناً مباركاً.

في كل يوم أحد، ينسى يورغو العيادة والمرضى والمستشفى ويتجه إلى شاطئ البحر، يسبح إلى العوامة، يقفز عنها، يغطس من تحتها، يستلقي تحت الشمس ثم يمشي على الرمال. كان يوماً مماثلا لهذا اليوم حين أدرك انه أعجب بالآنسة هاسابس التي استلمت مركز أليكي في العيادة.

كانت جميلة ومليئة بالحياة، جاءت من معهد التوليد في أثينا. في اللحظة التي استلمت فيها العمل أصبح كل شئ على ما يرام. ففهمت أسس إجراءات العمليات في الحال وبنت علاقات ودية مع كل المرضى. نضحت بالثقة، كانت متعاونة ومشجعة، وأضفت جواً مرحاً بكلامها اللطيف وممازحتها مع المرضى. سُر بها يورغو إلى أبعد حد.

Twitter: @ketab_n

كقاعدة عامة، لم يبغِ أن يسبب أي توتر في مقر العمل وكان دائماً حذراً للغاية من هذه الناحية حتى أنه عندما رحل عن مستشفى الصليب الأحمر أثنت عليه رئيسة الممرضات الكريهة لكونه الطبيب الوحيد الذي لم يخض في علاقات عاطفية مع الممرضات. قطنت الآنسة هاسبيس في حجرة أعلى العيادة ورأى نور غرفتها من خلال نافذتها كل ليلة.

لم يستطع تجنب التفكير فيها وفي إبتسامتها، ضحكتها ومشيتها السريعة. لكنه لم يرغب الخوض في غمار علاقة غرامية وما يتبعها من عذاب ومشاكل بالأخص في محيط عمله. أحب الحرية التي تأتي مع العلاقات العابرة، يستمتع بوقته، ويسهر. إنه يحب النساء ولا ينوي أن ينهي مثل هذه السعادة رغم أنه كثيراً ما اختلطت عليه النساء بعضهن ببعض، مثل لولا الراقصة التي غمزته من أول ليلة رأته فيها في «ماكسيم». فتردد على النادي مراراً وأليكسيا صديقته من أثينا التي تقطن في ليماسول منذ شهر وغيرهما كثيرات، فإنه حقاً من الصعب عليه أن يقاوم إمرأة جميلة. أما من ناحية أخرى، ومنذ أن تصالح مع أبيه المعلم نيكوليس لم يتوقف الحديث عن إيجاد الزوجة المناسبة له مما لم يثر إهتمامه البتة.

رغم حذره الشديد وعدم رغبته بالتورط في علاقة مع الآنسة هسابيس إلا أنه في حفلة عيد ميلاد طبيب التخدير وبعد احتسائه كمية لا بأس بها من المشروب وجد نفسه في غرفة نومها، واتخذها عادة فلجأ إلى تلك الغرفة كلما عاد من عمله، تكون مضاءة وهي في انتظاره.

Twitter: @ketab_n

حاولا جاهدين إبقاء علاقتهما سراً عن العاملين في العيادة ولكن مثل تلك الأشياء من الصعب إخفاءها لمدة طويلة فوجدت الآنسة هاسابيس نفسها تعلو في عيون العاملين ولاءم يورغو وجود كاتي في حياته. ناداها بهذا الإسم فقط وهم سوياً لا ثالث لهم. أدارت العيادة بجدارة وكانت إمرأة جميلة وقد أعجبته لأبعد الحدود، لكن الزواج لم يخطر بباله أبداً. فقد تخيل إن تزوج فسيتزوج إمرأة من نوع آخر، إمرأة من ڤيينا مثلاً، مطلعة، تعزف البيانو وليست بوضاعة الآنسة هاسابيس، لذلك عندما تقدم والده بعرض جديد للزواج قبله مبدئياً. أثينا، إبنة رجل أعمال يسكن بالقرب من فاماغوستا، أحسنوا تربيتها دون إفسادها فتميزت عن باقي الأطفال بكونها مثقفة وأنضج من سنها، شاردة الذهن وذات كبرياء أعجب يورغو. نعم، من الممكن أن يتخيلها زوجة له لكن الوقت لم يحن للزواج بعد. فتشاجر مع والده الذي قال له:

«عليك أن تتخلص من المرأة اليونانية في الحال». رغم أن المعلم نيكوليس شعر بحنان حقيقي نحوها.

بقي الحال على ما هو بينه وبين كاتي بيد أنه شعر بالعلاقة تخنقه ولم يعرف كيف يفاتحها بذالك الشعور وأحس بحالة من الضياع. في هذه الأثناء تسللت كاتي إلى قلوب جميع أصدقاء يورغو بخفة دمها وحيويتها فدعتها أوليمبيا إلى بيتها مراراً كما رافقتهم في نزهاتهم وأحبها الجميع بحق. أخذها غوغوس إلى بيته يوماً، فتح درجاً وأراها مجوهرات أمه قائلاً: «إختاري ما تريدينه فقد مللت النظر إليهم ولا حاجة لي بهم، هذا القرط الزمردي مثلًا سيبدو رائعاً على أذنيك». حدقت كاتي بها طويلاً لكنها رفضت أن تأخذ أي من القطع فما كان منه إلا أن أهداها دراجة قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«خذيها فأنا لا أستعملها أبداً».

فرحت بالهدية وبدأت تتعلم ركوب الدراجة.

« إبتعد وإلا دهستك» صرخت في وجه كل من جاء في طريقها أما عندما تدهس أحد فتقول له:

«لقد أنذرتك».

جالت في كل ليماسول مع صديقتها إيرولا التي نبهتها مرة بعد مرة محذرة:

«إقفليها وإلا سرقوها». لكن كاتي تجيبها: «لن يسرقها أحد مني لأنهم يحبوني». إلى أن جاء يوم وسرقوها.

إلتقوا عادة في نادي «أكتيون» أو النادي البريطاني اللذين إزدادا أناقة خلال الحرب وجذبا المجتمع المخملي. وقف غوغوس في وسط الحشد يعلن ويسن القوانين وكانت معظم مناقشاته ضد المرأة رغم انه قضى معظم وقته في حضرة النساء وأكثرهن تعتبره صديقاً مشيراً إلى حروب طروادة وعدة كتاب فرنسيين، يرغب دوماً في أن يبرهن أن النساء هم أساس ومصدر كل الشر، الفساد والحروب. تمادى غوغس وجمع كل تلك الأفكار ودونها في كتاب وعده صديقه أنتونيس بترجمته إلى اللغة الإنجليزية.

في تلك الفترة اضطر يورغو أن يسافر مراراً إلى القدس والقاهرة على متن طائرة حربية. استمتع بتلك الرحلات بعد أن جعلته الحرب عاجزاً تماما عن الحركة، حبيساً كالحيوان في القفص.

زار القاهرة عام ١٩٣٩حين طلب البروفيسور بابايانو من ماكاس أن يدله على طبيب قدير ليعمل معه في عيادته الخاصة.

Twitter: @ketab_n

البروفسور باباپانو، رجل متحرر ومضياف كريم تقابلا واتفقا على التفاصيل ثم ذهبا إلى وزير الصحة علي إبراهيم باشا ليصدرليورغو تصريحاً بمزاولة الطب في مصر. وللحصول على التصريح كان على يورغو أن يكون محاضراً في جامعة ما فاقترح باباپانو عليه أن يذهب إلى أثينا ويجري بعض المحاضرات القصيرة في الجامعة هناك. لكنه عندما حقق بالموضوع أكثر إكتشف أنه ملزماً بأن يحلف يمين الولاء لملك اليونان مما كان مستحيلاً لأنه مواطن بريطاني. وكل اعتراضاته بأن مثل هذا الشيء غير وارد في أي من الجامعات الاجنبية لم تفده، فلم يحصل على مطلبه وفشلت المغامرة. لكنه بالنتيجة اكتسب صداقة باباپانو وكان هذا كافياً.

سافرا بعدها معاً إلى الإسكندرية وتعرف إلى العديد من الأطباء اليونانيين. امضى وقتاً ممتعا معهم وسمع منهم أن هناك حاجة للعاملين في مستشفى كوتسيكو التي أعجبته وكانت من أفضل المستشفيات التي رآها من حيث الأجهزة والعاملين.

احتفل أهل ليماسول بانتهاء الحرب وأقاموا الإحتفالات، كان يورغو أول قبرصي سافر إلى اليونان حيث حاز على إذن خاص للسفر بمساعدة ماكاس. فاستقل أول باخرة تركية مبحرة من قبرص ولحظة ما رأى مرفأ «بيراييس» اليوناني بعد كل هذه السنين تحركت مشاعره وأدمعت عيناه. ركب سيارة بثلاث عجلات إلى أثينا مصدوماً لما رآى من فقر وبؤس في كل مكان ولولا وساطة القنصل البريطاني وزجاجة الكونياك لما استطاع يورغو أن ينزل في فندق «غراند بريتاني» الذي صادره البريطانيون. قدمه القنصل على أنه ضابط في الجيش البريطاني فأعطوه غرفة لمدة شهر وهناك قابل جميع

Twitter: @ketab_n

أصدقائه ومعارفه القدامى. ألحّ عليه الجميع بالرجوع إلى مستشفى الصليب الأحمر لكن يورغو رفض إلحاحهم لأنه فعلاً أحس بالاستقرار في قبرص. في اليوم الثالث أدرك السبب الحقيقي من وراء رحلته فقلقه على ماريا لم يبرح خاطره أبداً وأراد أن يعرف ما حدث لها وإن كانت بحاجة لأي مساعدة بأي طريقة كان. خشي الأسوأ، خصوصاً بعدما انكشفت فظاعة وجنون سياسة هتلر بعد انتهاء الحرب.

استقل يورغو أول قطار متجه إلى ڤيينا ولم تغفل له عين إلى أن وصل إلى المحطة. هناك أخذه التاكسي إلى بيت ماريا مباشرة. فوجد البوابة الحديدية الكبيرة مقفلة بالشمع الأحمر والنوافذ مغلقة ولكن رغم ذلك دق جرس الباب مراراً وبلا توقف. بدأ النهار يتشقق على شارع «انغستراسا» فجلس على مقعد مقابل محل البقالة المجاور للبيت منتظراً. أقبل البائع وفتح الباب فسأله عن ماريا.

لم يعرف البائع عنها أي شيء ولكن الخادمة التشيكية التي كانت معها تعمل الآن في مطبخ فندق «غاستهوف». ذهب وانتظر ما يقارب الساعة إلى أن فتح مطبخ الفندق ولحظة ما رآى ستراڤكا حضنها وبكيا، قالت وهي تنتحب:
«جاؤوا وأخذوها ذات ليلة، أغلقوا البيت بسلسة حديدية كبيرة ولم أسمع عنها أي خبر، ليس لدي أدنى فكرة عن مكانها أو حتى مكان جينا إبنتها وزوجها، وكأن الأرض ابتلعتهم جميعاً. أشكر الله على أن ليزا وزوجها استطاعوا الهروب إلى أمريكا».

ترك ستراڤكا وتنقل من مكتب رسمي إلى آخر يوماً بعد يوم، يملأ نماذج لا تعد ولا تحصى. فقد أنشأت دول الحلف جمعيات لتقصي

Twitter: @ketab_n

وتتبع ضحايا النازية. وبعد عذاب دام ثلاثة أيام وجد إسمها في لائحة ضحايا «داخاو». تاريخ اعدامها ٢٢/١/ ١٩٤٤.

هام في شوارع ڤيينا منهاراً، عاجزاً عن الكلام، عاجزاً عن الأكل والنوم. مر يومان وهو يتخبط ويتمتم لنفسه:
«في عز الشتاء؟ في عز الشتاء؟» وكأن ذلك أسوأ ما في الموضوع. شعر بغضب لا يوصف بدون وسيلة للتخلص من ألمه. وفي منتصف الليلة الثالثة ركب القطار وعاد أدراجه إلى أثينا. اعتكف وظل وحيداً لمدة أسبوع كامل يحاول استيعاب الخبر، لم يقابل أحداً إلى أن التقى صدفة بباراسكيفيس ودعاه إلى «لوميديس» حيث أخبره بالمأساة. من بعدها أخذه أصدقاؤه للعشاء والسهر كل ليلة فقابل باتريشا ورينا لكنه لم يستمتع بأي شيء، ظل ثقل قصة ماريا يضغط على قلبه كالجبل.

كانت العودة إلى ليماسول بمثابة فرج وارتياح، فقد اشتاق إلى العمل في العيادة. ذلك الجزء من حياته الذي يسير بدقة واتقان بفضل قدرة وكفاءة الآنسة هاسابيس. لم يكن مستعداً للارتباط بها ولكن بنفس الوقت لم يقو على تغيير علاقته معها. أزعجه انتظارها له في غرفتها كل ليلة لكنه لم ير من الأمر مهرباً.

فجأة فكر بالإسكندرية وحاجتهم للعاملين وقرر أن يؤمن لها عملاً هناك. بدآ يخططان لرحلة الصيف سوياً. فقد دعوه الى مؤتمر في أثينا ووجدتها كاتي فرصة لزيارة أهلها في كوزاني ومن ثم يقضيان أسبوعا في أجازة معا قبل العودة إلى قبرص. كان خط مسار السفينة، بورسعيد، الإسكندرية، ليماسول، سيتركها في الإسكندرية.

Twitter: @ketab_n

ولم ينبس بحرف لأحد عن خطته تلك، وبالأخص لها هي بالذات فهو يكره الإنفعالات العاطفية. سيخبرها وهما على السفينة.

صدمت كاتي عندما وصلت إلى كوزاني، بلدتها التي لم تزرها منذ سنين، ففجأة ولأول مرة رأت الأشياء كما هي وعلى حقيقتها. لا أثر هناك للشوارع في البلدة بل طرق من الحجارة تسيل المياه من خلالها. نسيت كل هذا ووجدت نفسها تشعر بعدم إنتماء غريب. الناس جائعون. صادر الألمان بيت عائلتها أثناء الحرب، احتلوا الطابق العلوي وأجبروا العائلة على العيش في غرفتين فقط. لكن كان بالطبع هناك جانب إيجابي لتلك الحالة البائسة حيث مدهم جندي طيب القلب ببعض الطعام سراً ولم يقاسوا من الجوع.

كان إسمه هربرت، وسيم، أشقر وأزرق العينين. وقع في حب كريستينا أخت كاتي، ولم يفصحا عن حبهما حتى لا يعرضَا حياتهما للخطر وداوم بعد الحرب على مراسلتها. عاشت كريستينا لحبه ولم تتزوج أبداً. لم تكف الأم عن محاولة التقصى عن أخبار إبنتها كاتي وتستفسر عما إذا كانت على علاقة ما، أو إن كان هناك مشروع زواج في حياتها، ولكن بلا جدوى.

قمة سعادة كاتي كانت عندما زارت مربيتها العجوز فافو التي تعيش وحدها الآن ولم يبق في فمها سوى ضرسين. جلست بقربها وهي تعمل على النول وبالحال أعطتها قطعاً صغيرة من القماش لتلعب بها كما كانت تفعل معها وهي صغيرة، احتضنتها وهي تبكي كالطفلة فقالت لها فافو مواسية:

«تلك هي حياة الغربة، حذرتك، وقلت لك ألا تذهبي».

Twitter: @ketab_n

أخذتها إلى الحقول وجمعوا الخضراوات البرية، تماما كما كانت تفعل أيام الصغر فقد عشقت الحقول وقضت فيها أحلى أوقاتها، ثم خبزت لهما فطيرة كانت أشهى ما ذاقته، وسألتها كاتي: «فافو، أتظنين أن بإمكاني خبز مثل هذه الفطيرة في حياتي»؟

لاشك أنها استمتعت بوقتها مع يورغو في أيجينا لكنها لاحظت أنه شارد الذهن وكثير التفكير. في اللحظة التي ظهر فيها شاطئ الإسكندرية في الأفق، قال لها بصوت هادئ وصارم:
«ستبقين في الإسكندرية! لقد أمنت لك عمل في المستشفى ولن تعودي معي».

بكت بصمت حارق. راقبها تجلس في الباص وبيدها رسالة التزكية، تبتعد شيئاً فشيئاً ثم تتلاشى. شعر بالشقاء بقية الرحلة، حاول التفكير برينا وباتريشا وكل النساء الجميلات من حوله، فالآن له حرية الإختيار بلا حدود ولا مشاكل، لكنه ظل كئيباً.

Twitter: @ketab_n

الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تاقت شوقاً إليه حتى شعرت بالهوان وأصابها داء اليرقان. إعتنت بها نينا أجريبولو، وهي من بور سعيد كأكثر من أخت. ساعدتها على إستعادة صحتها وعرّفتها على مجتمع الإسكندرية. أناس طيبون فيهم إنسانية ولطف أحست بهما من البداية. أحبت هواء الإسكندرية بالذات، شعرت بنسيم البحر يتسلل إلى غرفتها حتى والنوافذ مغلقة وكأنه يلاحقها في كل مكان.

أطلّت نافذتها على غرفة البواب الصغيرة التي بالكاد ما تتسع للسرير الذي يضم حياة محمود وعائلته بأكملها. فرأتهم يأكلون البطيخ ويلعبون الورق، هو بسترته البيضاء وهي بقميص نومها البنفسجي وشعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها. الأم، الأب وطفليهما.

نامت زينب زوجة البواب طوال فترة مرض كاتي على الأرض أمام باب غرفتها وكثيراً ما أحست بها كاتي وهي تضع ضمادات باردة على جبهتها ووجنتيها وتغير لها قميص نومها المتشرب بالعرق. لم تدرك ذلك في بداية الأمر ولكنها عندما طلبت من زينب أن تعود لزوجها وأولادها تظاهرت بعدم الفهم. دام مرضها أربعين

Twitter: @ketab_n

يوماً رقدت خلالهم في غرفتها وأول مرة تركت المستشفى كانت لتتمشى ذات يوم أحد على الكورنيش مع نينا.

تركتا المستشفى ومشتا تحت كروم الزنبق وشجر الفتنة، اهتزت المباني عند مرور الترام، دخلوا كاتدرائية القديس سافاس حيث أشعلت كاتي شمعتين احترقتا بشعلة واحدة. وقالت لها نينا:

«إنسيه، فهو لا يستحق حتى التفكير به بعدما عاملك بهذه الطريقة».

قال حارس الكنيسة:

«هذه أقدم كنيسة مسيحية».

وقفت كاتي تتأمل الأعمدة الرخامية الضخمة، وصندوق النذور الفضي المنقوش عليه «ثلاث سفن، مفتاح واحد، بيت واحد». استقلتا القطار الى أبو قير، وصلتا الى زافيريون، وهو مطعم سمك يوناني مدهون باللونين الأزرق والأبيض. غرقت كاتي في أحزانها وحنينها ليورغو والعيادة وليماسول. كل زبائن المطعم يونانيين، استقبلوا نينا بالترحيب وقام أحد المرضى بدفع فاتورة الحساب. انه سيرجيو بائع البلح الذي اقترح أن يأخذهم رحلة الى الرشيد بالسيارة. وقالت نينا ضاحكة:

«قلما دفعت الحساب في أي مكان فدائماً يدفعها أحد عني».

تجولوا في حقول خصبة ومزارع نخيل محملة بالبلح اليانع. مروا بقرى بيوتها من طين وبأسواق السمك. لم يعودوا إلى الكورنيش إلا عند الغروب فوجدوا أهل المدينة يتمشون ولأول مرة نست كاتي نفسها وأحزانها.

فرحت زينب بشفائها وكررت مراراً ذكر «ذاك الرجل الذي تركك» مستنتجة أن سبب بؤسها لا بد وأن يكون رجلاً مع أن كاتي لم تنبس

Twitter: @ketab_n

لها بكلمة. أخذتها زينب يوماً الى شارع رشيد، ومرتا بالأحياء العربية القديمة ودخلتا في أزقة ضيقة وحوانيت صغيرة تبيع أشياء غريبة: وطاويط، سحالي مجففة، تماسيح صغيرة وجذور غريبة. فتحت زينب ستارة قذرة فظهرت من ورائها إمرأة مكحلة العينين، قالت زينب لها شيئاً بالعربية فدعتهما للجلوس. واصلت المصريتان حديثهما وأدركت كاتي بأنهما تتحدثان عنها، ثم قامت المرأة وأحضرت بعض الأعشاب ودقتها بالهاون. قاطعتهما كاتي موضحة أنها لا تؤمن بمثل تلك الخزعبلات. لكن زينب لم تبالِ بل ظلت تراقب المرأة وهي تتمتم وكأنها في حالة هذيان. كان بقربها قفص عصافير، تحوم حوله قطة ودجاج يجول في كل مكان. في النهاية أعطتهما المرأة مغلفاً صغيراً وطلبت من زينب الأجر، أعطت زينب المغلف لكاتي مفسرة:

«ضعي قليلاً من هذا المسحوق في كل مكتوب ترسليه إلى الرجل».
عندما وصلت كاتي إلى غرفتها، افرغت محتويات المغلف في إناء الغاردينيا الموضوع على الشرفة ولسبب ما ترعرعت الغاردينيا بصورة غير طبيعية، وأزهرت أكبر الورود وأعطرها.

كان العمل في المستشفى شاقاً لا ينتهي لكن كاتي لم تكل أو تمل فقد كان هناك الكثير من الحفلات والرحلات مما سهل عليها الأمر. قابلت أناساً يحبون الحياة ويعرفون كيف يعيشونها فاستردت عافيتها بالتدريج.

عرفت نينا الإسكندرية ككف يدها وكلما ذهبوا للتسوق دعاهم أصحاب الدكاكين لتناول القطين وشرب عصير المانجا. كان لأحمد، أحد أصدقاء نينا، محل لبيع التحف، يغص بكل ما يتخيله المرء من أصغر الأزرار إلى أعتق الآثار. أحبت كاتي التجول فيه واشترت منه

Twitter: @ketab_n

قطعة من آن لآخر. اشترت ضفدعة من البلور أصر أحمد أنها من عصر الرومان، وقطعة من العقيق المحفور وصندوقاً من العاج على شكل بطة.

رأت يوما طلسماً منقوشاً باللغة اليونانية عليه أربعة كلمات كل كلمة من أربعة حروف، واحدة فوق الأخرى. وبينما كانت تترجم لأحمد الكلمات لاحظت أنه من الممكن أن تقرأ أفقيا أو عمودياً.

Α Λ Φ Α
Λ Ε Ω Ν
Φ Ω Ν Η
Α Ν Η Ρ

فتنتها واشترتها لترسلها الى أولمبيا وماريوس ظناً منها أنها قطعة نادرة الوجود لكنها اكتشفت بعدما جالت في مواقع أثرية عديدة مدى حب أهل الإسكندرية لمثل هذه الألعاب الكلامية وانتشارها في كل مكان.

حدثتها نينا عن انشغال أهل الإسكندرية الأزلي بقبر الاسكندر الأكبر أو «السوما» كما كانوا يلقبونه وكلمة «سوما» تعني الجسد باليونانية. بلغ فضول نيكتاريو، الممرض في غرفة عمليات المستشفى، حداً غريباً لدرجة أنه قام بحفرياته الشخصية بحثاً عن «السوما» رغم منع الحكومة لذلك. كان يقوم بالحفر ليلاً وغالباً ما انتهت مغامراته بالقبض عليه وزجه في السجن لعدة أيام ولكن بالرغم من كل ذلك لم يُفصل من عمله، فلا أحد يتفهم مثل هذا الهاجس كأهل هذه المدينة.

Twitter: @ketab_n

ألف نيكتاريو فريقاً مع صديق قبطي وآخر إيطالي يهويان علم الآثار، يجتمعون كل ليلة جمعة ويتسللون داخل سراديب موتى الإسكندرية ومقابرها. لهم نظريات غريبة حول ممرات سرية لم يتم اكتشافها. كان من المعروف في المدينة أن قبر اسكندر الأكبر يكمن تحت جامع النبي دانيال عند مفترق أكبر شارعين في البلدة القديمة. شارع «كانوبك» وشارع «سوما». سمعت كاتي قصصاً كثيرة تدور حول القبر، وأكثرهم شهرة كانت قصة سكيليتسيس المترجم اليوناني في القنصلية الروسية الذي ادعى أنه رأى تابوت الاسكندر الأكبر من خلال شرخ في باب سرداب مسجد النبي دانيال في منتصف القرن الماضي لكنه لم يستطع أن يرى أكثر أو يثبت ما رآه لأن الحراس اعتقلوه وتم ترحيله إلى خارج مصر في الحال.

سمعت كاتي قصصاً كثيرة مماثلة من أحمد بائع التحف وكاجيالوغلو بائع الحقائب المصنوعة من جلود الأفاعي أمام كنيسة القديس سافاس. همس لها كاجيالوغلو بآخر أخبار الـ «سوما» وهو يعرض عليها أحزمة مصنوعة من جلد التماسيح وحقائب مصنوعة من جلد السحالي فحكى لها القصص وكأن الـ «سوما» قريب له طال غيابه.

جمع قسم شرطة الإسكندرية ملفات لا تعد ولا تحصى بخصوص هذا الموضوع وكرسوا شرطيين متفرغين لملاحقة هواة الآثار هؤلاء. أقنعها نيكتاريو مرة بالذهاب معه في إحدى مغامراته الاستكشافية. لم يتوقف عن سرد الروايات عن هيرميز، ولكن فضوله تركز على الـ «سوما» وما جرى له. عشق نيكتاريو أيضا النميمة والإستغابة وقال لها يوماً وهما في الحديقة جالسين تحت النخيل:

Twitter: @ketab_n

«من المؤكد انك تعلمين أن نينا تملك سلطة قوية في المستشفى، فهي ممرضة الملك فاروق الخاصة ومستشفى الملك فؤاد فخورة بذلك فبدون أي إعلان مسبق كان يأتي السائق ويأخذها الى القصر، إنهم يقولون أنه مغرم بها لكنها تتظاهر بعدم الملاحظة. أهداها دبوساً ثميناً من الألماس ولكنها لا تحبذ الكلام عن مثل هذه الأشياء. أنا شخصياً اكتشفت هذه القصة عندما أصيبت عمتها بمرض خطير واحتاجت لبعض المال لعلاجها فأعطتني الدبوس لأبيعه لكن لحسن الحظ أني لم أبعه بسرعة لأن العمة توفيت فجأة فأعدته لها».

لم تعرف كاتي الكثير عن الملك فاروق لكن في ليلة وهي عائدة الى المستشفى مرت سيارة حمراء مسرعة وسمعت احدهم يقول:

«هذا فاروق، فهو الوحيد المسموح له باقتناء سيارة حمراء».

وكانت هذه حقيقة فقد أصدر قراراً ملكياً بذلك. أخبرها نيكتاريو كل التفاصيل بإيجاز، كيف كان الملك فؤاد مدمناً للقمار، وكيف أنه صرف ثروته وثروة زوجته على تلك اللعبة الى أن أطلق أخوها النار عليه في نادي محمد علي وبقيت تلك الرصاصة عالقة في حنجرته لذا ظل صوته يشبه نباحاً متحشرجا باقي عمره.

أدخل الملك فاروق الى المستشفى مصاباً بالفتاق. فجددوا الطابق العلوي في الحال ونزل فيه لمدة خمس عشر يوماً لا خمسة أيام كما هو معتاد وكأنه حبذ العيش هنا بعيداً عن المسؤوليات والرسميات. كانت نينا هي الممرضة المسؤولة وأعجب بها منذ ذلك الوقت. وإلى الآن، ما زال الدور السابع محجوزاً للملك، يأتيه مع أصدقائه لمدة ليلتين أو ثلاثة بالأسبوع ليلعبوا القمار إلى ساعات الفجر وفي الغالب ما يدعون نينا للعب معهم.

Twitter: @ketab_n

لم تذكر كاتي أياً مما سمعته لنينا بل انتظرت أن تفاتحها هي بالموضوع ولكن الى ذلك الحين ظل فاروق موضوع حديثها الدائم مع نيكتاريو.

جلست تحت الأشجار ومشت في حدائق المنتزه لتستمتع بزقزقة العصافير هناك. وأحياناً هامت في مقابر العرب التي تقع بجوار المستشفى وغالباً ما رافقها نيكتاريو إلى هناك يدلها على مقابر تحت الأرض وأشياء غريبة أخرى. إلى أن وجدت يوماً مخطوطة من النوع الذي يُقرأ أفقياً أو عمودياً على أحد القبور فظلت تبحث عن مثل تلك المخطوطات أينما ذهبت.

استرسل نيكتاريو في سرد قصصه:

«كنت في القاهرة عندما تزوج الملك فاروق من فريدة، اعتبر الأب فؤاد الحرف «ف» جالباً للحظ لذى سمى كل أولاده بأسماء تبدأ بهذا الحرف: فتحية، فايزة، فايقة وفوزية. كانا من أجمل الأزواج وهما يمران بسيارتهم الرولز رويس الحمراء متجهين الى القصر وقد خلعت الوشاح عن رأسها لأول مرة وتشوق الناس لرؤيتها. وزعوا طعاماً لخمسة آلاف طفل فقير في حديقة الأزبكية وكنت أنا أحدهم فلبسنا أحلى ما لدينا وتناولنا أفخم الطعام. احتفلت القاهرة بأكملها لمدة ثلاث أيام متواصلة».

وسألته كاتي:

«متى جئتم الى مصر»؟

«جئنا منذ عقود من رودوس، وكانت الحياة سهلة وبسيطة في ذاك الوقت فلم نحتج لأية وثائق، وكان الحال كذلك مع أهل نينا فقد عمل أبوها في السويس، وهناك أيضاً موضوع آخر لا تتحدث عنه نينا

Twitter: @ketab_n

وهو موضوع أخيها زينون. فقد جندوه وبعثوه إلى طبرق في ليبيا، حيث قاسى لمدة ثلاث شهور في الجحيم. أسمعت الناس يتكلمون عن «جرذان الصحراء»؟ لقد عاش زينون في حفرة في الصحراء وسط أسوأ حقل ألغام في التاريخ، ترك واحد وخمسين ألف جندي عظامهم في طبرق لكن زينون نجا بأعجوبة وبقي على قيد الحياة. لكن وهم في طريقهم عائدين الى الإسكندرية اكتشفتهم طائرة حربية إيطالية، ألقت عليهم القنابل ومات زينون. كانت نينا تعبد أخاها وموته كان صعقة كبيرة لا تتكلم عنها أبداً، ولم تخلع السواد إلا منذ فترة وجيزة. من المؤكد انها ستدعوك الى صلاة تأبينه، فهي تنظمها سنوياً قبل عيد الفصح».

بعد مدة قصيرة وجدت كاتي نفسها في كنيسة القديس سافاس تحضر قداس تأبين زينون حيث امتلأت الكنيسة بالأطباء والممرضين محبة واحتراماً لنينا. لم تتوقف نينا عن الذهاب إلى طبرق لتضع باقات الزهور في آخر مكان شوهد فيه زينون حياً.

اقترب عيد الفصح، أول عيد فصح لها بالغربة، فشعرت كاتي بوحدة قاتلة. خلال الأسبوع المقدس ذهبت كل ممرضات مستشفى الملك فؤاد الى الصلاة في مستشفى كوتسيكي لوجود كنيسة فيها. إمتصّت السجادة الحمراء العميقة دوي الأقدام فمشى أطباء وممرضات مستشفى كوتسيكي بأزيائهم الرسمية في مقدمة الموكب الجنائزي يوم الجمعة الحزينة. اتكأ كل المرضى على شبابيك المستشفيين المشرعة وبأيديهم الشموع المضاءة. لم تر أبداً اجمل من هذا الموكب. فاحت رائحة الأكاليل المصنوعة من الزهور العطرة كالورد والزنبق والسوسن.

Twitter: @ketab_n

أصرت كاتي بعناد ألا تراسل يورغو في الشهور الأولى وأقنعت نفسها بأن تنساه. وبالرغم من ذلك لم تقدر على التحكم في توترها كل صباح عند وصول ساعي البريد دون أن يحمل لها أي رسالة. أرسل لها يورغو بطاقة بريدية من آن الى آخر من الأماكن التي زارها ولكن الفرحة كانت لا توصف عندما تصلها منه رسالة بطابع بريدي قبرصي. ولكن وجب عليها أن تقتنع بنصيحة نينا، يجب أن تضع هذه القصة خلفها.

كثيرا ما نظمت مستشفى كوتسيكي رحلات شاركت فيها ممرضات مستشفى الملك فؤاد. جاء الصيف، ارتفعت درجة الحرارة وبدأت الرحلات الى البحر، استقلّوا القطار وذهبوا الى شواطيء سان ستيفانو، زيزينيا، غليم وسيدي جابر. استأجرت نينا دوماً نفس الكبينة في ستانلي وقضوا اليوم هناك. كانت الكبينة صغيرة لا تكاد تتسع لكرسيين لتناما عليهما ساعة القيلولة وكان بجانبهما كبينة عائلة من كاليمنوس ودعوهم على القهوة بعد الظهر. شكت الأم، السيدة أرتيمس يائسة بأن إبناها أصبحا عاطلين عن العمل بعد انتهائهما من التجنيد قائلة: «طالما قلت لهما، عواقب هذا التجنيد ستكون سيئة على اليونانيين في مصر، سيجد المصريون الحجج لتقليص فرص العمل للأجانب في الإسكندرية، عشنا هنا سنين طويلة بدون أية مشاكل، والآن انظروا إلينا. فالآن ولأول مرة بدأت العائلة تفكر جدياً بالعودة الى كاليمنوس ليفتحوا مطعماً هناك. كانت تصفية الامتيازات الأجنبية في عام ١٩٣٧ بداية النهاية.

وأضافت الأم:

«التخلص من التسهيلات للاجانب سيدمر الاقتصاد والصناعة عاجلاً أم آجلاً».

Twitter: @ketab_n

قال آندرياس، الابن الاكبر:

«لا تكوني متشائمة يا أمي فعندما يتحدثون عن الأجانب فهم يعنون الفرنسيين والبريطانيين لا اليونان، إنهم يحبوننا وقد عشنا هنا سنين طويلة، نحن منهم ولسنا بأجانب».

«ألا ترى ماذا يحدث؟ التصويت الجاري ضد الاجانب سينطبق علينا ايضاً فلن يستثنونا».

فقالت زوجة ابنها:

«لا تكوني سلبية فستجلبين لنا الحظ السيء».

كانوا صيادين غير ماهرين ولكن الحق يقال، بقيت مائدتهم عامرة بالأسماك وكاتي ونينا تمتعتا بدعوة مفتوحة عليها. كاتي عشقت الأكلات البحرية وفي الإسكندرية وجدت كل ما تتمناه، من الجمبري الى التوتيا أي قنفذ البحر التي تعلمت كيف تصطادها.

سألت كاتي نينا يوماً عن الملك فاروق، وفوجئت نينا بالسؤال ففكرت لبرهة قبل أن تجيبها ثم قالت:

«انا لا أبحث هذا الموضوع مع أي أحد لأنهم قد يسيئوا الفهم مما قد يؤدي إلى مشاكل. هناك إشاعات فظيعة تتناقل حوله، ذعرت عندما أدركت أنه معجب بي لدرجة انني فكرت بالهرب والعودة الى اليونان، فلا يستطيع أحد أن يرفض له أمراً أو طلباً لكني أدركت بالتدريج أنه لا يملك أية نوايا سيئة من ناحيتي بل بالعكس. أنا أعتقد جدياً بأنه مصاب بالعجز الجنسي وهو في الحقيقة كالطفل الصغير يهوى الثرثرة ولعب الورق. ورغم أنني لا أكبره سوى بشهر واحد فقط. لكنني أشعر وكأني أمه أو أخته الكبرى وهو لطيف معي وطيب للغاية. ربما يوماً ما سأخذك معي إلى قصر راس التين أو إلى شقته، لكن إحذري الإفصاح بأيِ شيئ من هذا لأحد. كثيراً ما يزور فاروق قصور

Twitter: @ketab_n

السلاطين وإن أعجبه أي شيء هناك أخذه في الحال وبدون تردد، أما أنا فليس لدي ما يؤخذ. كل ما يريده مني هو الصداقة والإهتمام، يؤمن بي وبأن يدي شافية، وكلما أصابه ألمٌ دلكته فيشعر بإرتياح في الحال. يقول أن البعض لديه هذه الموهبة ومن المحتمل أني أملكها دون ان أعرف، وعلى أية حال فهو لا يأتمن أية ممرضة غيري.

قالت كاتي متسائلة:

«تلك الشوكولاتة التي في غرفتك كانت من ألذ ما ذقته في حياتي، ولدي إحساس بانها هدية منه، لكن إنتظري لحظة! الحروف التي عليها: م. ف.، الملك فاروق، انها منه بالتاكيد، يا لسذاجتي فلم أدرك ذلك من قبل».

فردت نينا:

«إنه يعشق الشوكولاتة، تخيلي انه أراد مرة أن يبعث برسالة لملك إنجلترا ليشتكي من المندوب السامي لامبسون الذي كان بمثابة عدوه اللدود، وأخبرني أنتونيو هذه القصة ذات ليلة وهو سكران. أراد فاروق أن يرفق الرسالة ببعض الشوكولاتة للامراء والأميرات الصغيرات ولم يعرف كيف يرسل الرسالة من دون علم المندوب العام حيث كانت كل المراسلات تمر من خلال مكتبه. بدأ فاروق بجلب كل أنواع الشوكولاتة ليختار الأفضل ويرسله للأمراء الصغار ويقال أن في تلك الفترة غرق القصر بكل أنواع الشوكولاتة من بلاد عديدة، قريبة وبعيدة. بعد أن استهلك معظمها، اختار إحداها، أوصوا عليها بعلب خاصة ثمينة واختار من سيوصل الرسالة والشوكولاتة إلى إنجلترا. ولعلك تتخيلين، ما أن وصلت الى البرتغال كانت قد ذابت مرة بعد مرة لأنهم لم يكن باستطاعتهم حفظها مبردة على الدوام، أضيفي إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك انه عندما وصلت إلى لندن كانت العائلة المالكة في إجازة في الخارج وبما أن أوامر الملك فاروق كانت بأن يسلمها رسوله للملك شخصياً اضطر الى العودة بها خائباً.

قالت كاتي:

«يا لها من قصة».

أجابت نينا:

«أخشى أن تكون نهاية فاروق بشعة، فالبلد في مأزق ومليئة بإضطرابات هو غافل عنها تماماً. رغم كل الواجبات الموضوعة على عاتقه والمشاكل المحيطة به تجدينه منشغلاً بالشوكولاتة. أشعر وكأنما مسؤولية الحكم أثقل مما يتحمل».

إستمعت كاتي لهذه القصة بانبهار وفهمت سبب اختفاءات نينا المفاجئة وعدم تذمر أحد من تأخرها عن العمل. كان لنينا غرفة خاصة بها على الطابق السادس في مستشفى الملك فؤاد، تحت شقة فاروق .

«ذات مساء ،بل ذات ليلة» أكملت نينا: «جاء الحارس وأيقظني، وكان الوقت صيفاً والحرارة خانقة وقال فاروق لنذهب إلى المنتزه للعوم، ارتعبت، كنت خائفة لدرجة أن وجهي بدا شاحباً ورآني أنتونيو الإيطالي وأدرك أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام فاقترح أن يرافقنا. وصلنا إلى المنتزه في لحظات، فقد قاد فاروق السيارة بسرعة جنونية، ارتديت زي العوم ونزلت لأسبح وجلس هو على الشاطىء ينتظر بزوغ الشمس. قدم له الخادم عصير البرتقال ولحسن الحظ انه لم يحتسِ الخمر. كان أنتونيو يلازمه دائماً وقد كان الميكانيكي

Twitter: @ketab_n

الذي أصلح قطاراته الصغيرة وهو طفل، أنا أحبه جداً وهو لطيف جداً تجاهي، خصوصاً عندما أكون مرتبكة. كان يناديني بغريس لأنه اعتقد انني أشبه غريس كيلي الممثلة. عند دخول ايطاليا الحرب طلب البريطانيون من فاروق أن يطرد كل الإيطاليين من القصر، لكن المسألة لم تكن بهذه السهولة فالإيطاليون أنشأوا نظام البريد في مصر، وبنوا الإسكندرية كما كان أعز وأقرب أصدقائه منهم، ومن المستحيل عليه طردهم واعتبارهم أعداء. وفي غضون ليلة واحدة أعطاهم كلهم الجنسية المصرية ولكنه عقَّد الأمور حين أراد أن يجبرهم على إعتناق الإسلام وأغلق جناحاً كاملاً في المستشفى لتجري لهم عمليات طهور. طبعاً واجه رفضاً ضارياً فأقلع عن تلك الفكرة. إحذري يا كاتي أن تفضي بما أفصح لك به فأنا لم أحدث أحداً بهذه الأمور من قبل.

تكررت حكاية الإيطاليين تلك مع اليهود فبعض أعز أصدقائه كانوا من اليهود وعندما بدأت المشاكل في فلسطين قالوا، «لا نفهم لماذا وجب علينا أن نعلن دولة جديدة ولنا دولة هنا». وبالفعل كانوا أصحاب الامتيازات في مصر، تحكموا بالبنوك وسيطروا على جميع المؤسسات الكبرى، حتى أن بعض نسائه المفضلات كن منهم وقد كان مأخوذاً بهذا العِرق».

إنحنت نينا والتقطت صدفة قذفتها إلى البحر. وهنا نادتهما أرتميز فالطعام قد جهز، وتوقفتا عن الحديث .

حملقت كاتي بالأمواج بنظرة عرفتها نينا في الحال، إنها تفكر في يورغو. دامت تقول لها:

«بالله عليك إنسيه وسوف تجدين رجلاً أحسن منه، سترين».

Twitter: @ketab_n

صدقتها كاتي ولكن رغماً عنها عادت وتذكرته، ومن ثم شعرت بالإحباط واتسم كل ما حولها بالفراغ والملل.

ظهرالأحسن منه، وكان إسمه بيريكليس نانوبولوس، مريض جاء الى المستشفى مصاباً بالزائدة الدودية. عملت عائلة بيريكليس بزراعة القطن، أمه ولدت في بور سعيد لعائلة من الصيادلة كانوا جيرانا لنينا. عرفت نينا بيريكليس منذ الطفولة، وكانت تعزه فاهتمت به أثناء وجوده في المستشفى. روت لكاتي كيف أنقذ كلباً من بعض الصعاليك رغم صغر سنه. درس في مارسيليا، وأنتج فصائل جديدة من القطن تمتاز عن كل ما هو موجود وتعلمت منه كاتي كل أنواع القطن: زاغورا، دوباري، سيركي، سافيديس، ثيودورو، ساشيل. ابتدع نانوبولوس سلالة ممتازة وجديدة بتهجين سلالات من القطن المصري، تميزت الفصيلة الجديدة بلون أصفر باهت، ونعومة كالحرير ومتانة لا تضاهى.

أدركت نينا على الفور انه معجب بكاتي فعجلت بتنسيق زيارة لمزرعة القطن. دعى كاتي ونينا الى المزرعة لقضاء ثلاثة أيام وبعث لهما بسيارة لتحضرهما. ساروا بمحاذاة السكة الحديدية على طول النيل، الأطفال يتراشقون بالماء في ترع صغيرة ومن حولهم الجاموس.

حكت نينا لكاتي قصة العائلة بالتلخيص، فقد كانت تكن إحتراماً شديدا لنانوبولوس الأب الذي توفي تاركاً لإبنه الشاب أعباء كل هذه المزرعة الهائلة مما اضطر بيريكليس إلى ترك دراسته والتفرغ لإدارة المزرعة. لقد ورث الصدق والنزاهة عن أبيه والحيوية عن أمه التي عُرفت بأفكارها العصرية والمتحررة. وجدتا الشاب بانتظارهما

Twitter: @ketab_n

على المدخل المتواري وراء النخيل مرتدياً بذلة بيضاء من الكتان أبرزت سمرته.

رحب بهم بيريكليس أحر الترحيب وقادهم الى حيث تنتظرهم أمه.

عاشت مارغاريتا نانوبولوس حياة نشطة جداً فقد كانت من أوائل النساء اللواتي قدن السيارات في مصر وشغلن الوظائف واعتمدن على أنفسهن. إثر إصابتها بمرض التهاب المفاصل، توقفت عن بعض نشاطاتها وللأسف مع مرور السنين أصبحت حبيسة المرض والبيت. تقضي أوقاتها الآن تستمع للأوبرا الإيطالية لكنها ما زالت تعلم أطفال الفلاحين في مدرسة أنشأتها خصيصاً لهم.

فرحت برؤية نينا، جارتها القديمة، وبدأتا بالحديث عن الحي القديم وآخر أخبار أهله فذكروا العمة آنجيليك الممرضة في المستشفى اليوناني، تلك المرأة الشجاعة التي واجهت الوباء الذي اجتاح مصر وأصرت على نقلها الى مركز تفشي المرض في الحال. كانت هي الطبيبة الوحيدة التي نجت من الوباء وعند عودتها إلى أثينا كانت أول طبيبة تدرس في الجامعة هناك. إحتج الطلاب حينها وحملوا شعارات جاهلة تقول:

«مكان المرأة، بيتها».

كل ذاك كان ضد المرأة التي قاومت وباء الطاعون والتراخوما، وأمراض العيون المتعددة التي أصابت عيون كثيراً من المصريين. وسألتها مارغريتا:

«أتذكرين كم كانت أنجليك تحب أن تروي لنا الحكايات»؟

كان البيت ذا سقف عال، ومروحة في كل غرفة وشرفات خشبية، تحيط به أشجار النخيل المحملة بالبلح وتفوح في حديقته الروائح

Twitter: @ketab_n

العطرة من أشجار الفتنة والياسمين. قدموا لهما المرطبات ثم قادتهما نور، الخادمة النوبية إلى غرفتيهما وبعد الظهر استقلوا فلوكة بيريكليس وأبحروا على النيل ومعهم مارغاريتا. بدأت الشمس في المغيب من وراء الأشجار وكان المساء جميلاً وسحر كاتي ففكرت:

«ليت يورغو يرى كل هذا الجمال».

تناولوا العشاء على الفلوكة، لحم غنم طبخته نور بالطريقة التقليدية فوق أوراق الموز وعلى قاعدة من الأرز.

في اليوم التالي ذهبتا مع مارغاريتا لتتابعا درس اليوم، راقبتا ثلاثين طفلاً يتابعونها بتشوق وهي تجلس على الكرسي، وتكتب على السبورة بطبشورة موصولة بعصاً طويلة.

قال الأطفال: «الجمل».

فرسمت مارغاريتا جملاً. ثم قالوا:

"الجَمَلُ مَا يِشُوف سَنَامَهُ".

فرسمت السنام. وقالت مارغريتا موضحة:

«إكتشفت أنهم يتعلمون أسرع عندما أعلمهم عن طريق الأمثال المتداولة في البلدة».

أعاد الأطفال الجملة ونقلوا المثل كما كتبته لهم مارغاريتا على السبورة. وهنا رددتا كاتي ونينا الجملة معهم قائلتين:

«وها نحن سنتعلم اللغة العربية أيضاً».

انتقلت مارغريتا للمثل التالي ورسمت بطة. فردد الأولاد:

"إبْنَ البَّط عَوَامْ".

Twitter: @ketab_n

أعجبت الأمثال كاتي وقررت أن تأخذ كراسة تمرين لتدونها. إنتهوا من اللغة العربية وانتقلوا الى الحساب وكانت كاتي قد تعلمت الأرقام بالعربية من قبل فاستطاعت أن تتابع الدرس وراقبت الأطفال يحلون المسائل الحسابية على السبورة. بعد إنتهاء الدروس أتت نور بالكعك ووزعته على الأولاد فأخذ كل منهم كعكة وتركوا المدرسة فرحين.

عند الغداء هب النسيم وهز الستائر، شربوا النبيذ الأبيض من كروم أنتونياديس وأثناء تناولهم الحلوى التي صنعتها نور، فكرت كاتي:

«من الممكن أن تكون الحياة لطيفة بدون يورغو، لكن بالتأكيد ستكون أجمل بكثير لو كان حاضراً».

سألتهم مارغاريتا بعد الغداء:

«أتودون أن تروا مجموعة الطلاسم»؟

فتحت الخزانة الزجاجية في غرفة المكتب وأرتهم جعرانا بعد آخر بكل الأشكال والأحجام والألوان ومصنوعة من أحجار متعددة، الحجر الصابوني، حجر الحية، العقيق، العاج والخشب. كما أرتهم طلاسم على شكل بطة ذات عنق ملتوٍ، تمساحين، إصبع، عين وريش.

قالت:

«أحببت هذه الأشياء منذ كنت طفلة صغيرة وبدأت أجمعهم. أتى فلاح إلى بيتنا في بور سعيد وأنا ما زلت صغيرة يبيع الخضروات وعرض طلسماً على الطباخ فأحببته وأعطيته كل مصروفي ثمناً له ومن بعدها أصبح يحضر لي واحداً جديداً كل أسبوع. حُرمت من

Twitter: @ketab_n

البوظة لسنين عدة حيث كنت أنفق كل مصروفي على تلك الأشياء الصغيرة. إحتفظت بهم في صندوق في غرفتي، وعندما اكتشفته أمي غضبت وتدخل أبي الذي كان حنوناً علي فأخذني الى مكتبه وقال:

«قولي لي! أين وجدت هذه الأشياء»؟

اعترفت له وصدقني وزاد مصروفي ثلاثة أضعافه حتى أستطيع أن أشتري البوظة من حين الى آخر ولكني أيضاً عدت وصرفته كله على مثل هذه الاشياء. لم يتدخل أبداً، لم يشترهم لي أو يوبخ الطباخ. وهكذا بدأت هذه المجموعة وكانت سبب إتجاهي لدراسة علم الآثار ومع إني لم أكمل دراستي بسبب إصابتي بمرض السل ولكني احتفظت بفضولي نحو هذا العلم.

قالت نينا:

«أنظروا هنا! إنها ذبابة. أي نوع من أنواع التذكار هذه»؟

قالت مارغاريتا:

«قد تدهشين، فهناك أمثلة رائعة للذباب الذهبي. لا بد أنها ترمز للهجوم الغير متهاود على الأعداء أو ربما لتردع عنهم الحشرات القارصة».

وسألتها كاتي:

«لم يرمز الجعران»؟

أجابت:

«الجعران مخلوق عجيب. طالما راقبته في الحديقة، يجد روث دابة أكبر من حجمه بمرات عديدة فيدسه في جحره ليتغذى عليه وبما أن الروث كبير الحجم فالجعران لا يستطيع رؤية مساره، فتجدينه

Twitter: @ketab_n

يتعثر بكثير من العقبات وعندما يحاول تسلق مرتفع شديد الإنحدار لا ييأس أبداً حتى ولو وصل حد الإرهاق. في الواقع إن مراقبته مسلية للغاية. ولم يغب هذا الإصرار عن المصريين القدامى. كما أن الشرنقة لا تختلف كثيراً عن المومياء، الممرات التي يبنيها الجعران تحت الأرض ليدفن فيها بيضه تشبه تلك التي اكتشفت في مدافن قدماء المصريين. فطالما ربطوا الجعران بالموت والتناسخ. أقدم الجعارين بسيطة النقوش ولكن بعد ذلك بدأوا ينقشون الأماني الطيبة أو إسم صاحب الجعران أو مقتطفات من كتاب الموتى تحتها ثم عملوا منها الخواتم والأختام. أنظروا الى التجميع الجميل الدقيق في هذه القطعة».

قالت نينا:

«يا لها من ألوان أخَاذة، أذكر هذه الألوان في بور سعيد».

وأضافت مارغاريتا:

«أندر القطع هي جعران القلب فقد آمن قدماء المصريين أن الميت عندما يصل إلى العالم الآخر يجب أن يكون قلبه أخف من الريشة والجعران يحمي ذوي القلوب الثقيلة. بيريكليس دوماً ما يجد أحلى القطع فهو بارع بإيجادهم كما أن العاملين في المزرعة يحبونه وكلما اكتشفوا قطعة عرضوها عليه أولاً. المنطقة هنا مملوءة بالمدافن فأينما حفرت تجد شيئاً جميلاً أو نادراً. وغالباً ما نعتبر ان إيراد تلك التحف مصروف جيب للعاملين.

كان بيريكليس الصبي الوحيد الأجنبي الذي تربى مع أولاد البلد ولن تتصوروا الإنتقادات التي واجهتها بسبب ذلك فقالوا إنني أم مهملة وعديمة الفائدة وأنني أعرض ابني للموت بمرض الدزنطاريا. نبذونا وإذا مروا بنا لم يحيونا. في الحقيقة لقد عانى

Twitter: @ketab_n

الكثير من أصحاب الاملاك والأعمال الأجانب من هجرة أولادهم، فمتى ما ذهبوا الى أوروبا للدراسة لا يعودون إلى مصر ولا يبقى أحد لإدارة الأعمال. لم تكن هذه مشكلتنا مع بيريكليس فهو يحب هذه البلد».

فسألتها نينا:

«ماذا قلت؟ إبن البط.....»؟

ردت مارغاريتا:

«إبن البط عوّام».

و أضافت: «لقد ولد مهر الليلة الماضية أتودون رؤيته»؟

راقبت نينا الشاب ينظر إلى كاتي وكان من الواضح جداً أنه مأخوذٌ بها.

بعد الظهر أخذهما بيريكليس إلى السوق المفتوح المليء بالدجاج والبط والوز، حيّاه الجميع واشترى لكلٍ منهما قطعة من النسيج المحلي وسلّة من القش. كان السوق بقرب الجامع الذي سُمي بإسم رجل علم عاش في العصور الوسطى، في يوم مولده من كل سنة يملؤون قارباً بالحبوب ويضعونه فوق المسجد بالقرب من إناء ماء كبير لتشرب الطيور. ويأكل الأهالي الحلويات المحفوظة بالقطر والكركديه، وهو الشاي المحلي عندهم.

قال بيريكليس:

«لقد حجزت تذاكر للمسرح الأسبوع القادم، فرقة مسرح أروني مانوليدو ستأتي وتقدم عرضاً لمسرحية التضحية».

قالت كاتي:

«فلنذهب إذاً». فقد كانت تحب المسرح جداً.

وأضاف:

«ولنتناول السمك في نادي التجذيف بعد المسرحية».

Twitter: @ketab_n

قالت نينا لكاتي وهما في طريق عودتهم الى الإسكندرية:
«اسمعيني يا كاتي، لن تجدي رجلاً أحسن من بيريكليس، إنسي ذاك القبرصي الذي أساء معاملتك فهو لا يستحق تفكيرك، صدقيني».

حدقت كاتي بالسماء وهي تزداد احمراراً في صمت. وصلوا إلى الإسكندرية في المساء وسمعوا أصوات السقايين، والأئمةِ ينادون للصلاة. مروا بمحل لياكوبولوس بائع الجرائد والمجلات اليونانية واشترت مجلة ثيسوراس. وعند وصولها الى المستشفى وجدت رسالة من إيرولا في انتظارها:
«مشتاقون لك جداً وقد كنا في الحديث عنك تلك الليلة في النادي، سيأتي جوجوس الى الإسكندرية الشهر القادم. لقد تدهورت حالة العيادة منذ رحيلك، ومنذ يومين مات أحد المرضى. ابعثي لي باخبارك. مع محبتي. ايرولا».

هزها الخطاب وظلّت محملقة بالسقف لمدة طويلة وكأن المشاعر الجميلة التي أحست بها طوال الايام الثلاثة الماضية تبخرت، أصابها الغثيان وخمدت مشاعرها. سمعت دقاً على الباب ودخل نكتاريوس يخبرها عن حفرياته، لم تطق أن تصغي له فقالت:
«أتركني وحدي أرجوك، فليس الآن وقتك ولا وقت الإسكندر الأكبر».

عادت تتصفح مجلتها، ثم رمت المجلة على الأرض فجأة وهي تحس بالضيق من كل شيء ومن كل من حولها: النخيل، أشجار الفتنة وحتى زينب التي أتتها بالقهوة. لقد أعادتها الرسالة إلى أيامها في ليماسول، الأمسيات في بيت جوجوس المليئة بالأكلات الشهية

Twitter: @ketab_n

والشباب الوسيم، غرفة طعام أوليمبيا بثريتها الحمراء، الرحلات إلى الجبل والعروض المسرحية القادمة من أثينا والنادي الإنجليزي حيث كانت تنزل سلالمه الخشبية وتجلس وتضع رجليها في الماء تراقب يورغو يعوم وهو ينظر إليها بحنان. اكتظ كل شيء في رأسها كالدوامة الى أن شعرت بالدوار.

حضّرت الأدوات اللازمة للعملية التالية وتبادلت بعض الكلمات مع المرضى الجدد. رأتها نينا وعرفت بالحال أن هناك شيئاً ما، فسألتها:

«ماذا جرى لك»؟

تفادت الإجابة متظاهرة بالانشغال لكن نينا أصرّت فاضطرت ان تقول لها أنها استلمت رسالة من ليماسول، فانزعجت نينا وقالت:

«إسمعي يا كاتي، لن أبحث هذا الموضوع معك ثانية، الأمر بيدك، فأنا نصحتك والقرار قرارك».

وكانت هذه المرة الأولى التي ترى نينا منزعجة منها إلى هذا الحد.

«إنني أعتذر عن طريقة كلامي معك ولكن حياتك هي التي على المحك». وأكملت ترتيب السرير فشدت الشرشف، طوت طرفه وأدخلته تحت الفرشة بعناية.

عادت كاتي إلى غرفتها في حالة من الذهول، إستلقت على الفراش وأغمضت عينيها. تذكرت أول مرة ذهبت فيها لبيت غوغوس وقابلت بعض أصدقائه، مثل جورجيت كولاكيدو التي نشرت كتاب طبخ تحت الإسم المستعار آيتا كيدي. وأصر غوغوس أن معظم الوصفات في الكتاب كانت وصفاته هو قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«انني أول من أدخل الطبخ الفرنسي إلى ليماسول فمن سمع عن الفلامبيه أو عمل صلصة البيرنيز من قبل؟ لقد سرقت وصفاتي».
وبالطبع لم توافقه جورجيت على ما قاله.

كانت المجموعة مفعمة بالحياة بانتظار الأطعمة الرائعة التي تعوّدوا تناولها في مثل تلك الأمسيات الراقية. تحدثوا عن إبن المحامي يوستاسياديس الذي كان يدرس الطب في أثينا حيث قيل أنه أصبح شيوعياً فصرخت ماريا:
«يا إلهي! إبن بيريكليس أحمر؟ سيقذفنا اللـه كلنا في جهنم».

قدم لهم غوغوس طبقاً من الأرانب المحشوّة بالزيتون الأسود والأخضر وهنا اضطرت جورجيت لأن تعترف بأنه أحسن طباخ في الجوار فقد كان حشو الأرنب ممتازاً وتوازن الكحول والتوابل مثالياً. قدم غوغوس بعض الأطباق بجانب الأرنب مثل البطاطا كروكيت، السلطة، ومعكرونة جوجوس الشهيرة التي حاول الجميع تقليدها بلا فائدة. فكان السر يكمن في اللبن ونوعية جبنة البارميزان الجيدة المستخدمة. إنتهت الوليمة بالكعكة السحرية التي أصرت جورجيت على أنها من وصفاتها.

أهدتها جورجيت أحد كتبها لكن كاتي لم يكن لديها وقت للطبخ فالعمل بالعيادة لم ينته أبداً، ولكنها كانت تقرأ بعض الوصفات للطباخة التركية هافا، التي حاولت أن تتبعها معترضة بأن الوصفات معقدة. لكنها حاولت ثانية وثالثة الى أن اتقنتها، حتى أن يورغو الذي لا يهتم بمثل تلك الأشياء لاحظ الفرق في نوعية الطعام.
هافا أحبت كاتي فقد كانت تحن وتتعاطف مع كل من هو عاشق. وسمعتها كاتي مراراً وهي تلتقي تحت السلالم مع أفرام البواب، الذي

Twitter: @ketab_n

كان رجلاً سفيهاً قيل أنه يأكل الفئران ولكنها لم تذكر أيٍ من ذلك ليورغو لأنها تعرف أن ردة فعله ستكون سيئة.

وأحيانا ذهبت مع هافا إلى الحي التركي بعد الظهر لإضاءة شمعة عند القديسة ثيكلاس المبنية على أرض علي الحج حسن، الذي ادّعى أنه رآها في المنام وأقسم أن يبقي لها قنديلاً مضاءاً إلى الأبد. ثم مشتا في شارع أنتونيوس على حافة نهر غاريلّيس حيث يبدأ الحي التركي وزارتا بيوتاً صديقة وأكلوا هناك البقلاوة والكنافة.

كلما رأتها حزينة جلبت لها زينب الكنافة من الحلواني الموجود على الرصيف المقابل، فكانت تؤمن شديد الإيمان بأن الحلويات تقضي على كل الأحزان والآلام وبالأخص الكنافة التي اعتبرتها قوية المفعول. وبالفعل كانت كاتي تشعر بتحسن، وتنفض أحلامها من رأسها وتتجه إلى غرفة العمليات.

في أول الأمر أحس يورغو بالراحة رغم شعوره العميق بالذنب، إلا أنه أحب استرداد حريته. فعاد يقضي لياليه في ماكسيم كلما أراد وسهر بدون قلق غير مرغم على العودة بأوقات معينة. الآن هو حر وباستطاعته أن يقع بالحب من جديد. عشق النساء ولم يستطع أن يشبع منهن. لم يتبلور مشروع زواجه من أثينا بالطبع فلم يكن مستعداً للإرتباط بعد وأثر ذلك على علاقته بوالده الذي انفجر فيه يوماً قائلاً:

«ماذا تريد بالضبط؟ إنها غنية، جميلة وذكية. أنا لا أفهمك».

فأجابه: «كل ما أريده هو الهدوء والسلام والأهم من هذا وذاك أريدك أن تتوقف عن التدخل في حياتي».

Twitter: @ketab_n

لكن مع مرور الوقت بدأ يشتاق إلى كاتي، إلى طاقتها اللانهائية وروحها الخفيفة. فبعث لها ببطاقة بريدية من آن إلى آخر ولكنها لم ترد عليه أبداً. وأحياناً سمع أخبارها من إيرولا وأوليمبيا. كان عليه أن يستفسر عنها بحذر بالغ لأنه كلما ذكر إسمها هوجم بشدّة وقالوا له:

«إمرأة عظيمة كهذه تدعها تفلت من يدك؟ لن تجد مثلها مرة أخرى». لدرجة أن علاقته بأوليمبيا بدأت تفتر بسبب كاتي فكثيراً ما كررت:

«آه يا كاتولا، ليتني أعرف ماذا تفعلين الآن».

وغالباً ما تظاهر يورغو بالأكل وكأنه لا يسمعها. وأحياناً يشعر يورغو بالإحباط فلا يذهب إلى ماكسيم بل يعود الى بيته مبكراً بقلب مثقل لا يؤاتيه النوم فيستيقظ في اليوم التالي عصبياً متوتراً.

قالت لها نينا:

«يجب عليك أن تفصّلي فستاناً جديداً لموعدك، فلا يمكن أن تذهبي الى المسرح بهذا الشكل». وأخذتها الى شارع سيزوستريس وصعدوا إلى محل الخياطة دينورا ساماريدو المليء بالمجلات والأقمشة، انشغلت دينورا بالتفصيل فقلبوا صفحات المجلات ينتظرونها ووجدت كاتي ما تريده في الحال فبعثتهم دينورا الى ابراهيم عكيلة لشراء القماش اللازم.

ثاني مرة رأوا فيها بيريكليس كان ذاك المساء عندما أتى ليأخذهم إلى مسرح زيزينيا. وارتدت كاتي فستاناً جميلاً من الأورغانزا فصلته لها دينورا ووضعت لها نينا زهرة غاردينيا على ياقتها فبدت رائعة. وقف بيريكليس في المدخل ونظر إليها بإعجاب واضح ثم دخلوا إلى المسرح.

Twitter: @ketab_n

قال لها بيريكليس:

«ستيفانو زيزينيا كان من جزيرة خيوس اليونانية ويقال أنه كان بحاراً على سفينة محمد علي وحين طلب الباشا أحداً يجيد لعبة الشطرنج، استدعوا له زيزينياس ومنذ تلك اللحظة لم يتركه. وهبه محمد علي أراضٍ واسعة وشاسعة في الإسكندرية، وفي عام ١٨٢٥ عندما منعت فرنسا بيع محمد علي أية سفن حربية، اشترى زيزينيا ذو الجنسية الفرنسية سفينتين حربيتين ووهبهم لمحمد علي. أكملت هاتان السفينتان الأسطول البحري الذي خسروه في نافارينو. وليعبر له عن شكره، أعطاه الباشا حي الرمل بأكمله.

امتلأت صالة المسرح تماماً، فساتين جميلة، معاطف رسمية، ثريات ملونة وورود في كل مكان. شربوا الشمبانيا أثناء الإستراحة وبعد التصفيق المطول في نهاية العرض ذهبوا إلى نادي التجذيف لتناول العشاء. سارت العربة بمحاذاة الكورنيش إلى أن وصلوا إلى النادي الذي كان بمقابل قلعة قايتباي. قال لها:

«اسمحي لي بمهلة لأوصي على الأسماك ثم نتمشى بالقرب من القلعة».

تركتهم العربة على أحد أبواب القلعة وكان البحر هائجاً والأمواج تتخبط بالحائط البحري.

قال بيريكليس:

«لا أعرف سر انجذابي لهذا المكان، كانت المنارة هنا، بنى القلعة السلطان المملوكي قايتباي في القرن الخامس عشر واستحضروا الأعمدة الرخامية من ركام المنارة».

أصر أحد المحليين أن يأخذهم في جولة في متحف مهمل به سلاحف ضخمة وهياكل أسماك كلها قذرة ومغطاة بالغبار، تفوح

Twitter: @ketab_n

منه رائحة سمك عفنة.

شعرت كاتي بالدوار من الشامبانيا وجمال الأمسية، وأوصلتهم العربة الى فندق سيسيل وتمشّوا للمستشفى. خلعت كاتي حذاءها ذا الكعب العالي واتكأت على الدرابزين، وفقدت توازنها للحظة، فامسك بيريكليس بيدها وضمها إليه. رائحته ولمسته الحنونة، أشعراها بالضياع فتمتمت بالتحية وأسرعت صاعدة الى غرفتها. ارتمت على سريرها مرهقة ولكنها لم تستطع أن تنام، تلك الأمسية أيقظت كل مشاعرها نحو يورغو، الشهوة والغضب كاناعلى أشدهما، ومع هذه المشاعر الجياشة غرقت في النوم.

استيقظت على النسمة العليلة التي انسابت الى الغرفة رغم النوافذ المغلقة، النسيم في الإسكندرية كالبلسم، لا أحد يفهم متى ومن أين يأتي. كان أمامها يوم شاق مليء بالعمليات منذ الصباح الباكر، لكن لم يخيفها جهد العمل بل كانت تتوق إليه فهي تعشق التحدي. تذكرت كيف كانت تبدأ يومها في العيادة في ليماسول بتدوين مهامّها اليومية التي غالباً ما كانت تتعدى الأربعين. كان عليها أن تقرر ما ستطبخه هافا واضعة بعين الإعتبار الإحتياجات الغذائية لكل مريض على حدة، تطلب كل الأدوية اللازمة، من سيستلم الغسيل بعد أن تركت ماريا العيادة لأسباب صحية؟ السرير في غرفة رقم ٦ مكسور، وتسمع يورغو يناديها من غرفة العمليات. وتساءلت: «من ذا الذي يستطيع أن يقوم بكل هذه المهام كلها الآن»؟ حتى شراء الخضار من سوق البلدية كانت تقوم به يومياً على دراجتها. وأحيانا يأتي إيفاغوراس ليساعدها ولن تنسى كم استاء عندما علم أنها لن تعود ثانية.

Twitter: @ketab_n

«يا ترى ماذا يفعل الآن»؟. لقد انتشله يورغو من حالة البؤس التي كان يعيشها في بيت مدير البنك العثماني حيث كان مهملاً جائعاً فلم يقدموا له الطعام هناك إلا في حالة توفر البقايا. كان يتسلق إلى سطوح البيت المجاور ويراقب الممرضات تأكلن البيض والجبن والمقانق فيسيل لعابه. أخبرت هافا الطبيب بما يحصل فقال لها بدون إهتمام: «أتحسبين العيادة هنا حضانة»؟ فلم يتعد إيفاغوراس حينها الثانية عشرة من عمره ولكن في النهاية أشفق عليه يورغو وجلبه الى العيادة ليعمل. في البداية أعطوه مهام بسيطة، فقدم الطعام للمرضى وقام بأي عمل يسندوه له. ومع مرور الوقت تعلم القيام بمهام أكبر وأهم. أخذته كاتي للخياط ليصنع له البناطيل واشترت له أول حذاء جديد في حياته.

كانت تعرف حق المعرفة أنه من المستحيل أن يجد يورغو بديلاً لها، فلقد أقر الجميع بكفاءتها وكانت متأكدة من أن العيادة تعاني من الفوضى في غيابها.

اضطر يورغو ان يقضي وقتاً أطول في المستشفى فغاب عن العيادة معظم النهار وكان لا بد لأحدٍ ما أن يستلم المهام ويدير العيادة، تلك المهمة تحتاج لإثنين أو ثلاثة لإدارتها وحتى كل هؤلاء لن يتمكنوا من القيام بها على التمام والكمال. وكم أحست بالأمل عندما كتبت لها أوليمبيا تقول:

«من يوم ذهابك، والعيادة في حالة يرثى لها».

لم يهمها استغناء العيادة عنها و لكن همها ألا يستغني يورغو عنها وهنا تساءلت عما يعجبها به وحاولت جاهدة أن تفهم ما

Twitter: @ketab_n

هو سر انجذابها له كالمغناطيس، السؤال الذي حيرها وسلب راحة بالها. لقد كانت نينا على حق، يجب أن تنساه فقررت أن تقبل دعوة بيريكليس للخروج ثانية وحدهما.

ذهبا الى «بافيون دو لاك» وقضيا الليلة في مرح وضحك. أخبرها الكثير عن نفسه وعن مشاكل المزرعة. ففي السنة الأولى عندما فاض النيل كان صغيراً وبلا خبرة، ولم يكن لديه أدنى فكرة عما يجب أن يفعله فساعده ووقف بجانبه كل أهل القرية، بنوا السدود وأوقفوا الطوفان. مرت أوقات عصيبة عليهم ولكن محصول سنين الفيضان فاق غيره. شعر بيريكليس بثقة وشجاعة وبدأ يقيم التجارب لتهجين القطن فكان محصوله من أحسن المحاصيل في المنطقة.

عادا مشياً على الأقدام إلى المستشفى، مارين بحي لبيع الدواجن وكان من الغريب أنه رغم الساعة المتأخرة من الليل كانت كل المحلات مفتوحة، الدجاج، البط، الدجاج البري والحجل في كل مكان. جلسوا على مسطبة في محل «كوسما» أفضل من يصنع المهلبية في الإسكندرية. فاح الشارع برائحة الدواجن ولكن سرعان ما تعودا عليها ولكنهم لم يسمعوا سوى قأقأة الطيور، فاشترى الناس الطيور وحملوها في أقفاص من القصب. قال:

«نسيت أن أقول لك عن إمرأة قبرصية جاءتنا اليوم لتبيع أمي قطعاً مطرزة من قرية ليفكارا، إسمها غريب وليتني اتذكره».

وصرخت كاتي: «أليسافو»؟

قال: «تماماً، أليسافو، أي نوع من الأسماء هذا»؟

ردت: «يعني إليزابيث بالطبع، لقد أجرينا لها عملية».

Twitter: @ketab_n

وتوقفت حيث شعرت بالحرج لاستخدامها صيغة نحن، لكنها أكملت:

«كانت تشكو من آلام في المعدة وجاءت معها القرية بأكملها. طال شفاؤها فكان لي أن قضيت معها وقتاً طويلاً وأخبرتني قصصاً لا تعد ولا تحصى. كانت أرملة لها خمسة أطفال. عمّ الفقر في القرية ولم تعرف ماذا تفعل، ذهبت الى قاض يسكن في ليفكارا تشكو له يائسة فاقترح عليها أن تبيع قطع التطريز المصنوعة في القرية. فقالت متسائلة باستغراب: «تلك القصاصات يا حضرة القاضي؟ من سيشتريها»؟

كان لديها صندوق خشبي مملوء بقطع من التطريز صنعتها أمها وجدتها، في الواقع كانت كل إمرأة في هذه القرية تعمل بالتطريز ولكن لم يخطر ببال أحد أبداً أن تكون لتلك القطع أية قيمة وأن من الممكن بيعها. لكن القاضي أصرّ وقال:

«أحضري لي القطع وسأقيِمهم لك وأساعدك على بيعهم».

عندما سعّرهم لها اعتقدت أنه قد جنّ وصرخت:

«سيسجنونني».

لكن من باب اليأس حملتهم على ظهر حمارها وبعد رحلة شاقة وصلت الى ترودوس حيث تقضي زوجات كبار موظفي حكومة الإنتداب عطلة الصيف. طردها الحراس ولكنها لم تيأس بل أصرت وبمساعدة رسالة من القاضي استطاعت أن تبيع بعض القطع للزوجات الانجليزيات اللاتي أعجبن بدقة العمل. جمعت مبلغاً عظيماً لم تحلم به في حياتها، ستين جنيهاً ذهبياً، ومن هنا نشأت مشكلة جديدة. كيف ستعود الى القرية دون أن تتعرض للسرقة.

Twitter: @ketab_n

ففكرت وارتدت ثيابها بالمقلوب، لم تغسل أو تمشط شعرها فبانت وكأنها متسولة ووصلت الى قريتها بأمان. هكذا بدأت تجارة التطريز الناجحة التي تولاها الرجال بينما بقيت نساء القرية في بيوتهن يطرزن. كم اتمنى لو أراها ثانية، أتعرف أين أجدها»؟

قال بيريكليس: «سأسأل أمي ولكني أعتقد أنهم سيعرفون مكانها في قهوة «كوكينو» فهي القهوة القبرصية الوحيدة في المدينة.

تأخر الوقت وكان على كاتي أن تبدأ عملها باكراً في اليوم التالي فواصلوا المشي باتجاه المستشفى .

بعد عمليات الصباح، نادت كاتي نينا قائلة: «إنني خارجة، أتستطيعين أن تتولي مرضاي إلى أن أعود»؟

وقبل أن تنبس نينا بسؤال واحد جرت كاتي واستقلت الترام إلى حي العطارين ووصلت إلى قهوة «كوكينو».

«أهلاً». رحب بها كوكينو وهو يحمل صينية عليها بفناجين القهوة فسألته في الحال:

«أليسافو هنا»؟

قال: «لا، خرجت في الصباح الباكر وستعود بعد الظهر، أتودين ان أقول لها شيئاً؟ إجلسي! إبنها هنا، شعر بالمرض الليلة الماضية وهو مستلقٍ في غرفته، إذهبي اليه يمكن ان تصفي له دواء يساعده».

Twitter: @ketab_n

ذهبت كاتي إلى الغرفة الخلفية ورأت طفلاً صغير العمر شاحب الوجه مستلقياً على الفراش، وضعت يدها على جبهته فوجدت حرارته مرتفعة جداً. خرجت وعادت بعد حين ومعها حقنة من صيدلية «كونياري»، أعطته الحقنة وقالت له مطمئنة:

«ستشعر بتحسن بعد قليل، لكن حاول أن تنام».

وقالت لكوكينو: «قل لها سأعود لرؤيتها في الساعة السابعة».

مر اليوم ببطء وتساءلت في نفسها: «لن أستطيع أبداً التخلص من القيد الذي يربطني بقبرص، فما هو الخبر المهم الذي ستقوله لي أليسافو» ؟

احتضنتا بعضهما وكأنهما أختان.

«أشكرك على اعتنائك بإبني ولكن ماذا تفعلين هنا»؟

لم تملك كاتي الإجابة على هذا السؤال، فماذا لها أن تقول؟ غيرت الموضوع بسرعة قائلة:

«أخبريني أنت، كيف الأحوال في قبرص»؟

بدأت تحدثها أليسافو عن القرية ووصول الكهرباء إليها. لكن كاتي لم تصغ، «أذهبت الى ليماسول لترى الطبيب»؟

أجابت: «أخذت إبنتي لتراه يوما عندما كانت متوعكة».

«وما أحوال العيادة»؟

لم يكن لدى أليسافو الكثير لتقوله، الطبيب بخير وكذلك العيادة. رأت إيفاغوراس وهافا هناك واستغربت انها لم تر كاتي لكن لم يخطر ببالها أبداً أنها تركت العيادة. كانت العيادة مكتظة يعمها

Twitter: @ketab_n

نوع من الفوضى فالإنتظار كان طويلاً. أحضر لهم كوكينو القهوة وطبقاً دافئاً من «أم علي»، الحلوى. بدأت تشكي لها أليسافو همومها فأخبرتها كيف هاجر إبنها الأكبر إلى أميركا، رحلة طويلة مكلفة، وكمية معاملات لا نهاية لها. لكنه وبعد كل هذا العذاب لم يوفق في بيع التطريز، وبالكاد استطاع أن يوفر قوته. تصوري أنهم في أميريكا يأكلون على مناضد من الزجاج وبدون مفارش. لكن الحمد لله هناك إناس متحضرون في أنحاء أخرى من العالم. باعت كل قطع تطريزها في القسطنطينية لفينغارا، وهي خياطة يونانية مشهورة في مدينة بيرا، تعرف كل البيوت الكبيرة وأعضاء المجتمع الراقي. ذهبت ومعها توصية من زوجة السفير الإيطالي في الإسكندرية التي اشترت منها قطعاً عديدة من التطريز وأوصت على مفرش طوله أربعة أمتار. أية طاولة تلك التي طولها أربعة أمتار؟ لقد عملت كل نساء العائلة على تطريز ذاك المفرش واستغرق ثمانية أشهر لإنهائه».

لم تصغ كاتي لكل ما قالته أليسافو وتركتها منزعجة، مشت على الكورنيش من أوله لآخره إلى أن وصلت إلى المستشفى حيث جلست على سريرها تحملق بالقطعة المطرزة التي أهدتها إياها أليسافو. التطريز يمثل نهر بروافد، نهر ملتو كالعنكبوت وغرقت كاتي تفكر... الله وحده يعلم إلى أين يأخذها قدرها. أمن الممكن أن تكون مشاعرها بمثابة عناد لأنه أمرها بالرحيل؟ أتختبر قوتها ليس إلا؟ غرقت في وسط كل هذه الأفكار ولم تنتبه لدخول نينا الى غرفتها.

وصلت رسالة أولمبيا في صباح اليوم التالي ولكن كاتي لم تستلمها حتى ساعة الغذاء لانشغالها بعمليات طارئه، مرت بمكتب الحارس وهو نائم في قيلولته يطرد الذباب بيده من حين إلى آخر،

Twitter: @ketab_n

وقفز عند رؤيتها صائحاً يلوح وبيده الرسالة:
«رسالة... رسالة».

فقد كان يعرف كم تفرح باستلام الرسائل ومتأكد أنها ستُكرمه. عرفت خط يد أوليمبيا على الفور ورغم إنفعالها لم تفتح الرسالة في الحال، بل انتظرت إلى أن وصلت إلى غرفتها، غسلت وجهها، شربت قليلا من الماء ثم جلست على سريرها بهدوء لتقرأها على مهل.

كتبت أولمبيا تقول أنها مشتاقة لها وتدعوها لقضاء بعض الوقت معهم في ليماسول. احمر وجه كاتي وشعرت بالغثيان من شدة الفرحة فقد اعتبرت ليماسول منطقة محظورة ولم تتصور أن بإمكانها العودة اليها. كيف سيكون إحساسها وهي هناك بدون يورغو؟ ألن تتفتق كل الجروح القديمة؟ إذن لن تراه. من الممكن أن يكون مع إمرأة أخرى، وكيف سيكون رد فعلها عندئذ؟ ظلت تحوم في غرفتها بعصبية حتى أرهقت نفسها ونامت.

أيقظتها نينا التي استفقدتها على الغداء. فقالت لها بلهفة: لقد تلقيت دعوة إلى ليماسول وقررت أن أذهب. فاجأت كاتي نفسها بلهجة اليقين تلك التي صاحبت كلماتها.

ردت عليها نينا بصوت مليء بخيبة أمل لإدراكها أن لا شيء سيتبلور من رحلة الأقصر التي تخطط لها: «ستندمين». لكن كاتي لم تتأثر بل استطردت تقول:
«تعالي معي وقابلي أولمبيا إنها إمرأة رائعة، بيتها جميل وستعتني بنا إلى أبعد حد».

Twitter: @ketab_n

فأجابتها باستسلام:
«يبدو أن قدرك هو أن ترجعي إلى ليماسول، فاذهبي ولنرى».

لم تسعها الفرحة لرؤية أضواء ليماسول ثانيةً لكن فرحتها تخللتها لحظات رعب تملكت مشاعرها. اضطربت كل أحاسيسها لدرجة لا تحتمل، وقفت لساعات على ظهر المركب تترقب ظهور ليماسول في الأفق وأحست بسعادة وارتياح تحولا فجأة إلى خوف من المجهول حين عادت إلى غرفتها في السفينة وقالت لنفسها:
«إهدئي، وليحدث ما يحدث، إهدئي إهدئي إهدئي». ووجدت نفسها تعيد هذه الكلمة بلا توقف.

التقت أثناء الرحلة بالسيد أنتونيوس، الصيدلي الذي يمد العيادة بالأدوية فحاولت أن تستقصي منه أخبار العيادة.

«ماذا أقول لك يا آنسة كاتي؟ كان الحال مختلفاً وأنت هناك. تعطيني الطلبية كل صباح والمهمة تتم. أما الآن فأذهب مرتين أو ثلاث مرات باليوم ورغم ذلك تنفذ الأدوية لديهم. وكم كنت أردد لهم، وحدها كاتي التي كانت تدير العيادة كالساعة، لم ينقصكم أي شيء حينئذ فكان يتم كل شيء بانتظام وبدقة».

كان من الواضح أنها لن تتمكن من استقصاء أية معلومات عن حياة الطبيب الشخصية فقد وجب عليها الحذر ولم تصر أكثر.

استقبلتها أوليمبيا في الميناء بفستان أصفر مورّد وقبعة كبيرة، تعانقتا وقبلتا بعضهما واتجهتا الى البيت. لم تجرؤ أن تسألها عن

Twitter: @ketab_n

يورغو ولكنها تمنت سراً أن يكون بانتظارها في بيت أوليمبيا. صعدوا السلالم ورأت انعكاس صورتها في المرآة الكبيرة في المدخل. لقد صففت شعرها، فكان مسحوباً عن وجهها، وارتدت فستاناً أزرق فاتحاً صنعته لها دينورا، كان غوغوس وإيرولا ينتظرانها في غرفة الجلوس الصغيرة التي تفضلها أوليمبيا لاستقبال الاصدقاء المقربين، رحبوا ببعض وتعانقوا، ولكن لا أثر ليورغو بعد.

تحادثوا وجلسوا في غرفة الطعام، نظرت كاتي إلى قطع الأثاث، إلى القنديل الأحمر الكبير فوق المائدة، الكراسي الثقيلة، الصيوان، الستائر المخملية والشرفات التي واجهت شارع أندرياس وعلى شمالها «أيا نابا» والبحر عن بُعد.

قالت أوليمبيا: «لقد صنعت لك الكانيلوني لأني أعرف أنك تحبينه».

ذهبت كاتي لتحضر الهدايا، رأس أثري مصنوع من الفخار لأوليمبيا، جعران لغوغوس، وحقيبة يد مصنوعة من جلد التمساح لإيرولا وجلبت لماريوس، زوج أوليمبيا الطلسمة التي تُقرأ بطريقتين وباتت هذه الطلسمة موضوع النقاش الأساسي وهم يحاولون إيجاد مغزى للكلمات فقال ماريوس:

«ألفا ترمز للبداية و ليون للقوة»... إبتهج بهديته جداً.

فقدت كاتي صبرها ولم تكن قادرة على تحمل الإنتظار لتنفرد بأوليمبيا وتسألها عن يورغو لكن غوغوس وإيرولا لم يتركاهما حتى الساعة الخامسة مساءً. وأخيراً وهي ترتب ثيابها، التفتت إلى أوليمبيا وسألتها بدون مقدمات:

Twitter: @ketab_n

«كيف حال يورغو»؟

«منعته من دخول البيت إلا إذا»...

«إلا إذا ماذا»؟

«إلا إذا وافق على الزواج منك فهذه القصة طالت أكثر من اللزوم. دعيني أتدبر الأمور، أرجوك. فإن كان يحبك بصدق سيظهر». شعرت كاتي بالإرتياح فلم يقنعها كلام نينا، أما أوليمبيا فكانت مقنعة بالتأكيد، وإن لم يظهر يورغو فستعود الى الإسكندرية وتطوي هذه الصفحة من حياتها نهائياً.

في اليوم التالي ذهبوا في رحلة الى بلاتريس، ووجدوا موائد ممتدة تحت الأشجار وعليها السوفلا، وشربوا النبيذ وناموا ساعة القيلولة على الكراسي تحت الأشجار، وأفاقوا على نسيم الغروب. أحست كاتي بحالة جميلة من اللامبالاة، فقد مرت بأوقات عصيبة ومريرة طويلة أما الآن فتوقفت عن القلق واستسلمت لعناية أوليمبيا. أوليمبيا مضيافة فائقة وتتالت الولائم، رحلات وحفلات كل يوم وبدأت كاتي تستمتع بوقتها وتطلق لروحها العنان.

لم يظهر يورغو، ستعود الى الإسكندرية وتبحر إلى الأقصر وأسوان في فلوكة وبدأت تفكر فيما ستفعله عندما تعود إلى الإسكندرية حين سيخرج يورغو من الصورة تماماً.

عادوا عصر ذات يوم مرهقين بعد رحلة بحرية في قارب فاسوس. سبحوا وأكلوا السمك الطازج الذي اصطادوه. لم تسمع جرس الباب فقد كانوا منهكين ومستلقيين على الكنبة يشربون عصير الليمون، لكنها رأت خياله من وراء الباب تعكسه أشعة الشمس الخافته.

Twitter: @ketab_n

قالت: «يورغو».

ووقفت.
قالت أوليمبيا في الحال:
«لقد حصلت على التصاريح اللازمة وسيقام العرس في «أيا نابا» يوم الأحد المقبل فقد كان هذا شرط سماحي له بالمجيء إلى بيتي».

عاش يورغو وكاتي حياة هنيئة ومتكاملة معاً. كانت أوليمبيا الأم الروحية لأول أبنائهم. غرس أسس الطب الحديث في قبرص، وأصبح مدير مستشفى نيقوسيا العام وتدرب الكثير من الأطباء الصغار على يده. كانت كاتي روح وحياة العيادة التي بنياها سوياً في نيقوسيا وأصبح لهما أولاداً وأحفاداً.

يجلس في غرفة نومه كل يوم يقرأ كل الجرائد اليونانية، مجلة التايمز، المجلات الطبية، كتب التاريخ وكثيراً غيرها. يستمع للفرقة النمساوية الكلاسيكية ويفسر أحوال العالم السياسية بجمل بسيطة لإبنته الكبرى.

كان من الممكن لكاتي أن تعيش حياة أفضل مع رجل آخر أكثر مرحا وحباً للحياة وأقل جدية وانعزالاً. فقد كانت إمرأة مليئة بحيوية لا يطفئها أي مجهود أو عمل مهما كان شاقاً. تستمتع دائماً بلذة الحياة، تحب الناس، سباق الخيل، لعب الورق، الزوار. غرق يورغو مع مرور السنين فى كتبه أكثر فأكثر ومن خلال صفحات مجلة «ناشونال جيوغرافيك» سافر إلى كل أنحاء العالم من غرفته. وعندما توفي أحست كاتي بفراغ وخسارة عظيمة لا تعوض.

Twitter: @ketab_n

وأنـا اتفحص ممتلكاتها وصورهـا ورسائلها أحسست وكأني أعيش حياتها من جديد، كيف كانت تطبخ، وتحضر المائدة بأدواتها الفضية، وتصنع المعجنات، صلصة الميلانين، فطيرة التفاح، وتصعد السلالم الى غرفتها.

تصفحت مذكراتها المليئة بأرقام الأصدقاء وأسماء موردي العيادة، نيكوس بيمبوس اللحام من أورونـتـا، بيتروس مورد الأكسجين، فريكسوس للغاز، أندرياس للحطب، التُربينة من زانيتوس، السماد من لانيتيس، عام ١٩٨٨ رحلة الى كينيا، في عام ١٩٩٠ حصلت أختي أنّا على سيارتها الأولى، أعياد ميلاد كل أولاد مارينا

زارت كاتي المقبره كل أسبوع ووضعت الورود النضرة على قبره... «أستعتنون بقبره بعد موتي، أم ستدعونه يندثر تحت الأعشاب».

أردت أن أروي هذه القصة لحفيدي الصغير يورغو كحكاية خيالية لأحافظ على كل الحقائق التي أعرفها، تاركة لخيالي العنان لتدوين ما لم يبوحوا لي به. لكن من المؤكد ان أحداث حياتهم دارت كما سردتها. أليست هذه طبيعة الحياة التي نعيشها جميعا؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يورغو في فاماغوستا مع والديه والعائلة

Twitter: @ketab_n

يورغو مع أصدقاءه في فيينا

يورغو في فيينا

Twitter: @ketab_n

يورغو في غرفته في فيينا

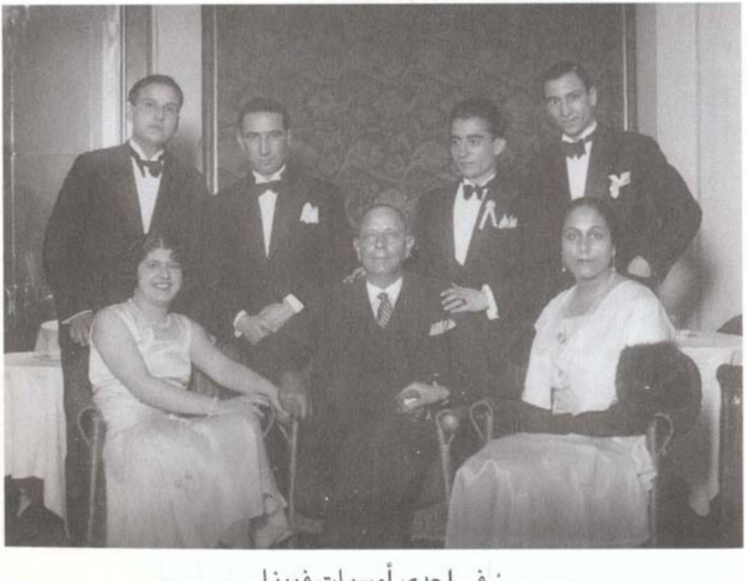

• في إحدى أمسيات فيينا

Twitter: @ketab_n

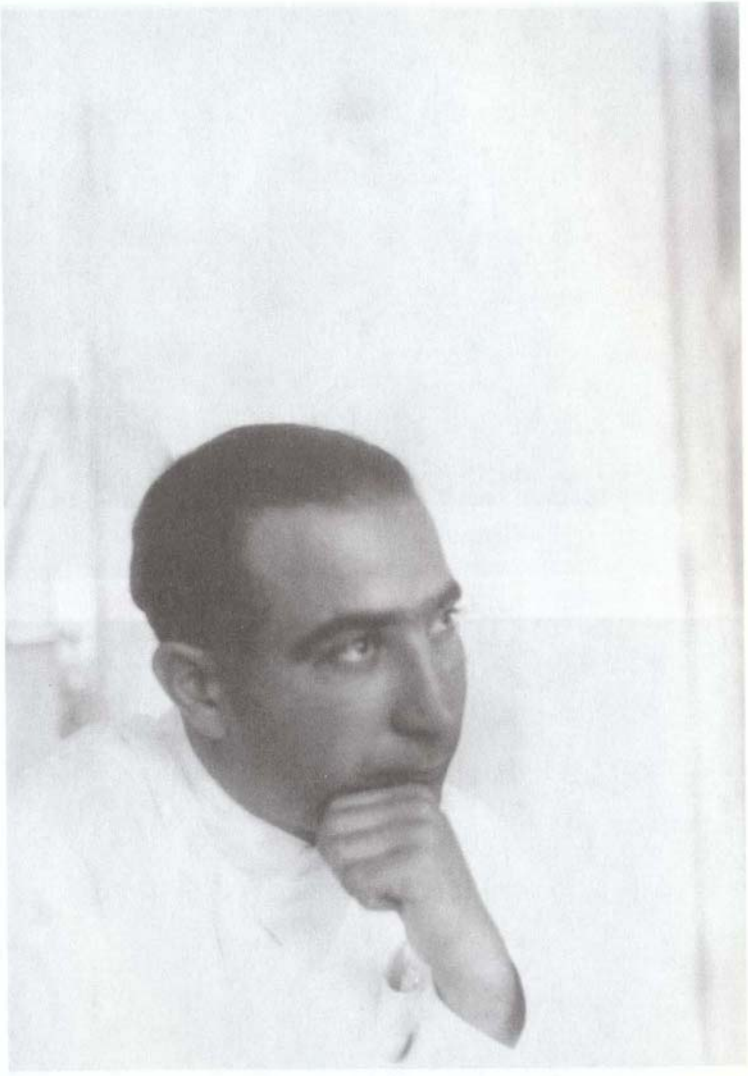

یورغو

Twitter: @ketab_n

يورغو في أثينا

يورغو في مستشفى الصليب الأحمر في أثينا

Twitter: @ketab_n

نادي أكتيون في ليماسول

كاتي في ليماسول

Twitter: @ketab_n

على الشاطىء في ليماسول

Twitter: @ketab_n

الأطباء والعاملين في مستشفى الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

الممرضات في مستشفى الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

عيد الميلاد في مستشفى الإسكندرية. كاتي الثانية من اليمين

Twitter: @ketab_n

كاتي في الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

كاتي ونينا في الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

كاتي على الغداء مع أصدقائها في الإسكندرية

Twitter: @ketab_n

رحلة إلى الأهرامات مع العاملين في المستشفى

Twitter: @ketab_n

كاتي ويورغو يوم زفافهما

Twitter: @ketab_n

أوليمبيا وكاتي يوم تعميد نكي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إنطلق شاب من قبرص ليدرس الطب في ڤيينا. مبهوراً بنمط الحياة الأوروبية الغنية بالموسيقى الراقية والعلوم المتقدمة، وجد نفسه شاهد عيان على إنبثاق الفاشية والدمار الذي قاد البلاد الأوروبية إلى الحرب العالمية. عاد إلى قبرص في عام ١٩٤٠ حيث افتتح عيادته الخاصة ووظف مساعدة يونانية سرعان ما افتتن بها فأرسلها إلى الإسكندرية خوفاً من شدة التعلق بها. هناك عاشت كاتي قمة وأوج الإسكندرية اليونانية في عهد الملك فاروق.

نكي مارانغو

ولدت نكي مارانغو في ليماسول، قبرص عام ١٩٤٨ وتسكن حالياً في نيقوسيا. درست علم الإجتماع في برلين الغربية وعملت ككاتبة مسرحية في المسرح القومي القبرصي لمدة عشرة أعوام. أسست وأدارت مكتبة كوكلياس في نيقوسيا كما أقامت سبعة معارض فنية للرسم. نشر لها كتب عدة في النثر والشعر وحكايات الأطفال. نالت أعمالها الأدبية جوائز دولية، فحصلت على جائزة كافافي للشعر في الإسكندرية ونال كتابها «ديفان» على جائزة أكاديمية أثينا للشعر. نشر كتابها هذا باللغة اليونانية وترجم إلى الإنجليزية والبلغارية والرومانية والألمانية.

9 789963 610303

منشورات الرمال